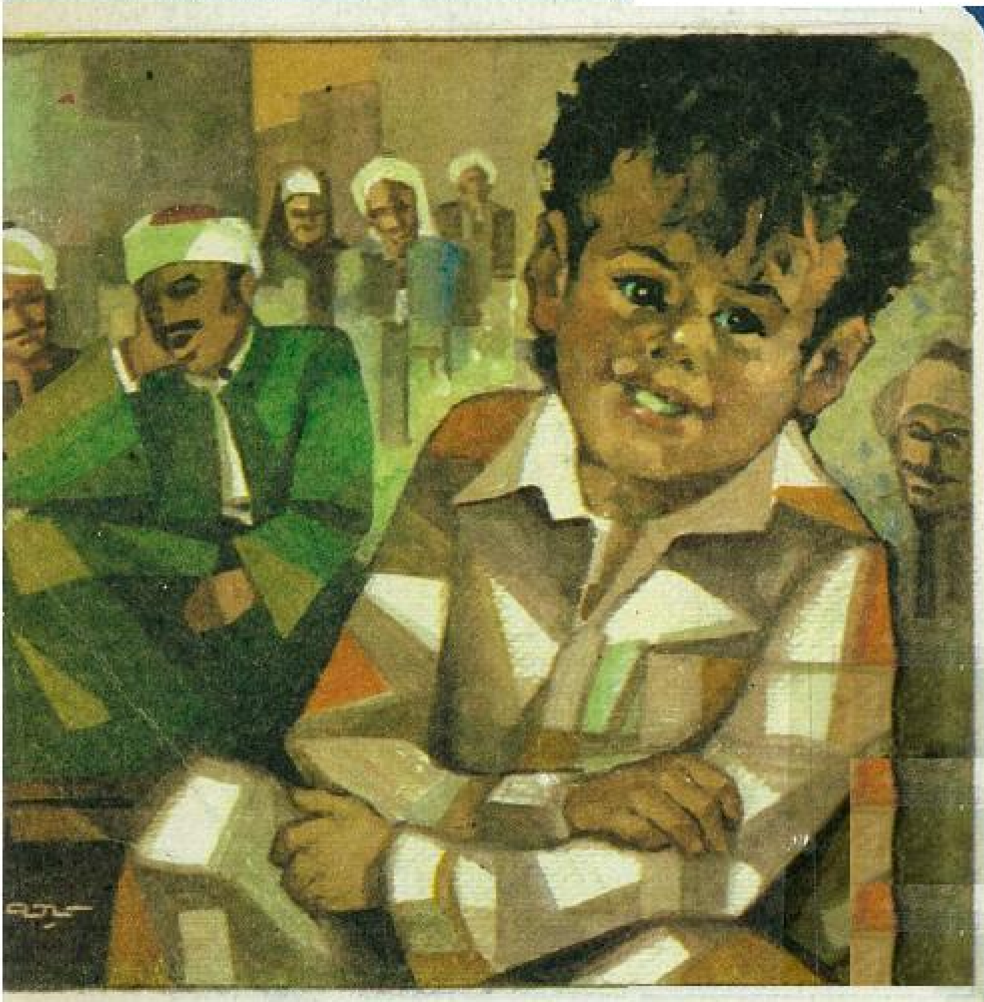
روايات الهلال

فرعان من الصبار

خيري شلبي

REWAYAT AL-HILAL
No. 455 NOVEMBER 1986

٤٥٥



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

(فرعان من الصّبّار)

(الخراز)

[روايتان]

تأليف

خيري شلبي

دار الهلال

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

الرواية الاولــى :

فرعــان من الصبــار

١ ـ اللحن المميـــز

طلوع الصواني

الامر يبدأ فى العادة بأن نكون خارجين من دورنا صباحا اوعائدين من المدرسة ظهرا .. فنلاحظ عددا من الرجال يجلسون القرفصاء ، دائما فى صفين ، ودائما متقابلين ، يبدو على وجوههم المنكسة حزن شفيف مخيف كغرباء مهانين كالتلاميذ المذنبين تتدلى آذانهم واكتافهم وايديهم فى شعور بالخزى والخجل ..

لحظتها يحط علينا صمت وذهول مفاجئان يعتقلان وقع خطواتنا على الارض حتى لايخدش ذلك الصمت الرهيب الذى لا شك يخفى وراءه مايخفى. اظهر خاطر يلم بنا حينئذ هو أن واحدا من ابنـاء هذه الحارة لابد قد مات لتوه ، خبر موت طازج لم يتجاوز بعد حدود أهل الحارة . سرعان مانتعرف فى وجوه الجالسين على بعض اهالينا اقاربنا معارفنا جيراننا . يشملنا قليل من الرعب فى العيـون وكثير من فرح غامض متبض لكنه مع ذلك لذيذ ! ربما لان « عشـوة » اجبارية دسمة ستفرض الليلة على كافة دورنا على أسم الميت تشتعل لها الكرانين ! وربما لان مهرجانا سيقام اين منه مهرجان العيد الذى نلبس له الملابس الجديدة ونركب الاراجيح ونأكل الهريسة !..

على كل راكب يمر بالجلوس ان يترجل ويخفف من وقع قدميه ، قد يربط دابته فى حديدة شباك او يتركها لصبى ، بعضهم تأخذه الشهامة والحمية فيترك دابته فى الشارع يندفع نحـوهم مهـرولا كمن يلبى استغاثة ملهوف ، لسان حاله يقول الى الجحيم بدابتى وبكل شىء فكل شىء يهون فى سبيل أن « ياخد خاطر » هـؤلاء الجماعة ..

وعلى كل راجل يصادفهم فى طريقه أن يبدو عليه الانزعاج الشديد ، يعدل فى الحال من خطوه ومن وجهته اياكانت وجهته الاصلية يولى

وجهه تجاه الجلوس قد تسربل بالعبوس بدا انه على وشك الانفجار باكيا لولا بقية من رجولة واتزان يحرص عليهما ـ فقط ـ حتى لا يبث الضعف فى هؤلاء الاهل المحزونين بظاهر هذا الجمع المتقرفص المنكس فى قهر ومذلة وملامح وجهه تنطق بصريح العبارة : قلبى معاك ياخوى ! قلبى معكم جميعا ..

يهب الجمع وقوفا فى استقباله . يسلم عليهم واحدا واحدا باليد قائلا : « البقية فى حياتك ! شد حيلك ! البركة فيك ! » . فيرد الآخر وهو يسحب يده برفق ويحاذيها لصدره فى تودد أسـيان شجى : « حياتك الباقية ! الشدة على الله ! آدى حال الدنيا » ، وربما عجز احدهم عن الرد لانشغال شفتيه بحبس دموعه الطاغية فيهمس بغمغمة او يهز راسه بضع هزات شاكرات ..

يجاس القادم الجديد بجوار اخر واحد سلم عليه ، نفس الجلسة الخاشعة الذليلة المهيبة مع ذلك . يعزم على جيرانه بعلبة الدخان ، معظمهم يشكره بهز اليد نحو الصدر عدة مرات ، بعضهم يقبـل شاكرا . فيما تشتعل السيجارة يكون الجار قد همس للقـادم الجديد باسم الميت . هنا ينزعج الانزعاجة الحقيقية التى ربما زلزلته حقا بل ربما دمرته ، يصيح فى استعبار وخشوع واسى شديد كمواء قطة معذبة : « لا اله الا الله ! انا لله وانا اليه راجعون ! آدى حال الدنيا ! » ، ثم تبدأ نظراته الطافية على سطح الدمع سرحة فاحصة بين وجوه الجالسين تهفو لالتقاط عينى احد اقارب الميت المباشرين ليختصه بنظرة بكلمة بقومة للذهاب اليه اذا لمح فى عينيه حاجـة تدعوه للذهاب ، فاذا التقط العين فانه يظل يلاحق صاحبها بالنظرات كأنه يحرضه على ان يطلب منه طلبا او يكلفه بمهمة .. فمن ليس له عائلة فى الحياة يغدو الجميع عائلته عند وفاته لابد ان يصيب قـدره الوافى من المعزة ان يزف الى الدار الاخرة مكرما مغفورا له كـل مايكون قد أتاه فى حقهم من اغلاط او غباوات او ثارات او نذالات بل انه ليحظى بلقب « المغفور له فلان » ..

ان كان وراء القادم الجديد مشوار ملح فانه ينهض مسلما على

الجميع مؤكدا بين كل سلام وآخر ان موعدنا ان شاء الله عند صلاة العصر . وان لم يكن وراءه اى شيء فانه يمكث محـاولا ان يخاق لنفسه مهمة ناقصة يبادر بفعلها : هل فعلتم كذا ؟ هل قمتم بكيت ؟! . . لكنه سيكتشف دائما ان كل شيء تمام التمام ، وان اولاد حلال غيره كانوا اسعد منه حظا فى السبق الى الواجب ، الولد « عنتر » والولد « جنوم » والولد « زناته » — من فتية حارتنا ولا فخر — قد بلغهم الخبر لا احد يدري كيف ! فتوجهوا بالفئوس والكريكات والمقاطف ليفتحوا تربة الفسقية ويرممون بناءها ويمطرون زرعها بوابل من الكبزان والبلاليص .. وثمة من ذهب للاتيان بالنعش من عند الجامع الكبير فى وسط البلد او من جوار دار الشيخ « مـرسى الخطيب » الذى يتطوع بتغسيل الميت وتكفينه وتلقينه الشـهادتين لا يتقاضى على ذلك اى أجر بل ربما اشترى الصابون والليفة والعطور من جيبه الخاص ولا ينى راسه المستدير ذو اللحية البيضاء القصيرة يهتز برسل البسمات المعزيات والدعوات والصـلاة على النبى محمد سيد المرسلين احمعين يطلب الصلاة عليه لقاء كل كلمة يتفوه بها يرين صمت الهدوء منه على كل المجروحين يبادلونه الكلام فى وضــــوح واتزان ورصانة بالغة .. حتى هو الآخر يكون قد وصل بالفعل منذ دقائق ولابد انه الان يدلى بمشورته فى عدد الامتار المطلوبة للكفن وفى طلب مكان فسيح للغسل والتكفين .. وحتى الشيخ « فـرحات » الاعمى المنادى قد ذهب اليه من يطلب اليه المناداة بالخبر يعطيه الاجر مقدما دعوة بالستر وعدم الوقوع فى ضيقه ، مهرجان وحده من مهرجان المدت فى بلدتنا يحلو لنا أن نلف وراءه متفرجين وياحبذا لو صاحبين ! فبدون ارتفاع صوته مناديا بخبر الميت يصبح كأن الميت لم يمت يصبح الخبر فى حاجة لمراجعات كثيرة ربما ادت الى عراك او اخذ على الخاطر ! الاهم من ذلك تكون الميتة قد نقصت ركنا هاما من اركانها حتى ولو كان الخبر قد شاع بشكل أو بآخر . .

ان كان الميت من عائلة مسموعة فان المرسال يكون قد سافر من فوره الى دسوق البندر ليتفق مع صاحب الفروشات ، فما نلبث ان نرى سيارة نقل كبيرة وربما اكثر تدخل البلدة ، واى سيارة تدخل

البلدة لابد ان نجرى خلفها نتشعبط فيها نهلل منتشين تلتف حولها لا نتركها الا بعد ان تغادر البلدة تماما ، بعض العيال الاشقياء يحلمون بشعبطة يغفل عنها السائق حتى يصل بهم البندر يرونه . سرعان ماتتوقف السيارة فى ساحه جرن او براح شارع ، ينزل منها رجال يصرون مؤخـــراتهم فى سراويل ضيقة محزقة تحزمها سيور جلدية تزيد مؤخراتهم بروزا وانفلاقا يحفرون الارض يدقون عواميد مـــن خشب يطرحون حولها فوقها تحتها شرائح من نسيج ثمين ســـميك ملون من الباطن برسوم ونقوش وحروف كتابة ، خفاف كالقـــرود يتقافزون فوق هامات العمدان يربطون الحبال يتنقلون بسلالم خشبية متحركة تحتهم بفعل أفخاذهم كالبهلوانات فى دقائق يكون السرادق قد صار بهو قصر مملوء بالكراسى المذهبة المنجدة بقطيفة خضراء ..

منتهى فرحتنا حين نبحث عن المكان الذى سـيعاق فيـه نفير الميكرفون . ينبهنا ولد الى انه قد علق بالفعل فوق دار مجاورة او فوق هامة عامود متباعد . الفرحة الكبرى لحظة أن تتصاعد مـــن النفير خرخشة وصوت نفح وصفير عال فصوت الولد المســـك بالميكرفون يصيح : « الو الو .. ه .. آ .. ١ .. لوه . واحد اتنين تلاتة أربعة خمسة ستة آ .. لوه » . نصيح مهللين ضاحكين مقلدين: « آ .. لو .. ه .. واحد اتنين تلاته » . اصحاب الميت يهشوننا بغضب مزهو يشجعنا على الصخب والدوشة والاغراب يزعوننا فى قسوة فنقذفهم بحجارة ونجرى لنعود بعد برهة نقف مبهـورين بالسرادق والميكرفون والنفير الذى يخيل الينا انه السر فى حـلاوة حس المقرئين وان اى واحد منا لو تكلم فى هذا النفير فسـيكون حلوا كالمقرىء كالخطباء الذين تدمدم اصواتهم فى رثاء الميت ووعظ أهله وذويه ..

اما ان كان الميت غلبانا من دار ضيقة من غير عائلة فان منـدرة « محمد عبيد » تقف على ناصية الحارة ، ومثلها كثيرات لمحمـدات عبيدات على معظم النواصى تنتظر الاشارة . مندرة « محمد عبيد »

هى الواردة دائما فى حارتنا ، فلاح وفى نفس الوقت نجار سواقى معتبر له زبائن كثار قد حباه الله بنعمة ان يرث هذه المندرة الكبيرة العريضة المطلة فى مهابة على الشارع العمومى تقطع بأنه واسع العلاقات ، ضيوفه بالمئات يتقاضى اجره مقدارا معينا من المحاصيل طول السنة مقابل التزامه بنجدة سواقيهم فور تعرضها لاى عطل مفاجىء وهو يشكر الله على نعمته فيفتح مندرته للصحبة السعيدة والجمع الحزين على السواء اضافة الى جلسات فض المنازعات وحفلات استقبال مرشحى الدائرة يتطوع بتقديم الشاى والقهوة والشربات لكل من يطأ عتبة مندرته كبيرا كان أو صغيرا ..

سرعان مايبدأ ابناؤه فى كنس المندرة ورشها بالماء المذاب فيه قدر من الفنيك ينفضون المساند والحشيات يلبسونها ثيابها الجديدة النظيفة التى تنزع عنها بعد ذلك لتدخر لوقت عوزة كهذه ، يفرشون الحصائر اللدنة على المصاطب والارض فى المنتصف يجيئون بكل مافى الدار من كراسى خيزران وخشب يفتحون الشبابيك المطلة على الشارع وعلى ارضها صوانى القلل المشوقات القدود يفتحون باب الشارع على وسعه ايذانا بأن هذه المندرة قد صارت منذ اللحظة مكان العزاء فى فقيد اليوم ..

تتلكأ امرأة قادمة من بعيد نحو الجلوس الذين انتقل جمعهم الى الجدار اللاصق للمندرة فصار اكثر وضوحا وتظاهرا . تبدو المرأة كشجرة جميز داكنة تزحف على الارض تحيط نفسها بشجرة ثانية من الغبار والتراب تترك على التراب قدمين عريضتين مفرطحتين كطاجن محروق غليظ الملامح والشفتين والخدين جهم لا يريد ان يقيم ودا بينه وبين أى شىء ، الشىء الوحيد الذى يبدو أنها يمكن أن تقيم معه أعمق الود هو خبر الموت ! يطل من اعلى طاجن وجهها عينان نهمتان تستلبان كل مرئى تجر خلفها عجيزة ضخمة كالزكيبة كالزنبيل منقسم الى نصفين على ظهر بغلة عفية واحد يطلع والآخر يهبط ومابين طلوع الآلية وهبوط الاخرى يخيل اليك

ان شيئا من الكرة الارضية يتحرك نحو احداث زلزال مضمر منذ قرون طويلة ! ..

انها جدتي « قطيفة » ، شيعت وراء هاتين الالينين عمرا يتخطى الثمانين حولا ومثلها خلفة اولاد واحفاد ويعلم الله كم من أعوام اخرى ستشيع خلف ظهرها الذى لم ينحن بعد كأن ثقل المؤخرة قد شده من الخلف على الدوام . وجهها وصوتها وعيناها كل ذلك يقول ان فى جراب عمرها اكثر مما فات . لا تكف عن الرواح والمجيء طول النهار هنا وهناك تقضى مصالح ومأموريات ، اذ ان لها اربع بنات متزوجات فى جميع انحاء البلدة تزورهن بانتظام لتلقى الرعب فى قلوب أزواجهن ولو على سبيل تذكيرهم ان البنية لها أهل اقوياء مع انها موقنة ان بناتها الاربع يحسدن على أزواجهن ، كما ان لها نصف فدان فى حوض « البقمة » القريب جدا من البلدة تزرعه فجلا وجرجيرا وخيارا وطماطم وقثاء تحرسه بنفسها ليل نهار تبيع للشارد والوارد ابتداء من حزمة فجل مقابل كوز من الذرة او بيضتين الى البيع للبياعين ذوى الحمير والزنابيل وابناء الاسواق تعرف أصلهم وفصلهم تضربهم بالبلغة لو تطاولوا عليها ترسل الى أحد أعمامى لو شاءت تستريح فيجيء على الفور ويرسلها ..

تخفف زحفها ترسل النظرات فى الاطفال فى كل شيء تريد ان تعرف اسم الميت من اى دار هو ؟ من عساه يكون عمه او خاله او صهره ؟ تريد ان تعرف كل ذلك من النظر وحده ومن دون أن تضطر لسؤال احد . لسوف تعرف لامحالة ، فهى ملمة بأخبار كافة الناس فى بلدتنا تعرف من التى كانت تلد بالامس ولادة متعسرة ، وكم مرة جاءها الطلق ومتى ذهبت اليها الداية وتعرف من الذى تعارك فى الغيط بالامس واصيب اصابة بالغة تعرف من الذى كان يتربص بمن ! ومن الذى كان مبئوسا من مرضه المزمن ! الاكثر من ذلك انها تعرف من بين ابناء العائلات من هو ابن موت لشدة ذكائه ونقاء سريرته وشرقه ومن هو شقى فعمره باق !! .. ولابد تغير من وجهتها فور المامها بالخبر فتسرع الى الدار على عجل ترتدى الملس الاسود فوق ثوبها

لترجع مسرعة الى دار الميت ، اذ انها هى التى لابد ان تقود فيلق النساء فى طلعة « الصيحة » أيا كانت صلتها بالميت او اهله ! .

يظهر « عمر خطاب » كالعادة دائما ، مقبلا من ناحية دكان « طلبه انقطان » يتابط قماش الكفن الذى بادر بقطعه فور تسرب الخبر اليه من اجود حرير ودبلان بصرف النظر عن مستوى الميت واهله ! .. يبدو كأنما الغروب الاحمر مختنق فى جبهته وملامح وجهه المكلبظ الجميل يتدفق صحة وبراءة وطيبة قلب ، من تحت طاقيته الصوف المستطيلة الملونة تنسرب سوالف شعر طويلة تلتحم بذقن رفيعة بيضاء سمراء تلتف حول استدارة الوجه كأنما وجهه موضوع داخل برواز اثرى من الاصداف المشغولة باليد ! فى منتصف الذقن تماما بقعة كبقعة الحناء تبدو كزبيبة اخرى مقابلة لتلك الثابتة فى جبينه من طول ما ركع ! ضخم الجثة ممتلىء الكتفين طويل الرقبة ينساب على جسده جلباب من البوبلين الابيض الشفاف الهفهاف تبدو سيالته محشوة بالنقود المكمخة من خير الله الوفير أذ هو ابن ناس طيبين لهم ارض واسعة يزرعها شركاء يفلحونها وابقار يربونها مقابل النصف فى كل حصيد ! يفعل فى البلدة أشياء كثيرة تنفع الناس يقرضهم فى السر بلا ورقة ولا شهود أما تبرعاته وعيدياته ولياليه التى يقيمها لاهل الله يذبح فيها العجول والابقار فكل ألناس تعرفها ولذا فكل واحد فى بلدتنا مدين ل « عمر خطاب » بشكل او بآخر وهو لذلك محترم مهاب مبجل ينتقل اليه العمدة نفسه ! ولانه مفتوح على كل المصاريع فان الاخبار تتدفق عليه في كل برهة من جميع الانحاء وهو لايكف عن بعث المراسيل بالهبات والتملية بالهدايا اما مناسبات الكوارث او الموت فانه ينتقل بنفسه ويكون اول رجل تراه واقفا على رأسك والازمه لما تكد تطبق على خناقك بعد فمجرد ظهوره ايذان بانفكاك جميع الازمات المادية وبظهور واحد من طرفه يشبع جوعى ويكتسى عرايا فما بالك بكساء الميت الذى أمر الله بستره ؟ . أطرف شىء عراكه الدائم مع أهل الميت حيث يختنق الغروب الاحمر فى جبينه رحول عينيه يشوح بانفعال بيديه السمينتين يعلو صوته الغليظ الشبعان كصوت صبى جعجاع لا يقنع بحقيقة الغضب :

« يمين بالله مايتبعنى مليم واحد !.. يمين على يمينك لابد ان تأخذ حقك الذى دفعته فى القماش !.. خل عنك والله ياجدع .. الحق حق ياحاج عمر ! .. ياجماعة مفيش فرق انتو ايه ؟!.. ياعم احنــا شايلينك للعوزه ! » ، يحلف يمينا مغلظا الا يقول كم دفع ! أهــل الميت يقدرون ثمن الكفن بالبديهة يطوون المبلغ يقدمونه له عنــــوة فيطبق يديه ويتبرأ من لمس النقود كانها رجس من عمــل الشــيطان سينقض وضوءه ! فما يكون منهم الا دس المبلغ فى جيبه وحينئــذ ينقلب فى الحال وجهه الى كتلة غضب حقيقى فيوجه نظــراته النارية الى من وضع النقود فى جيبه ! احيانا يضطر الى السكوت متسامحا ، احيانا ينهض منفعلا فيمشى وراء ذلك الذى دس النقود فى جيبه فيمسكه من كتفه يجعر فيه بغضب مخيف هذه المرة : « خد الفلوس من مطرح ماحطيتها » .. فيشعر الشخص ان مــن الخطورة عدم تنفيذ امره فيستعيدها ! ومهما كان مركزه فى البلدة فانه فى النهاية يخشى ان يفقد صداقة « عمر خطاب » ففقدانهــا خسارة لا يصاب بها المرء فى بلدتنا الا من سوء البخت فحسب ! ..

صوت الشيخ « فرحات » الاعمى المنادى يفتتح جولته من امــام حارتنا اذ هو من سكانها : « لا اله الا الله ! سيدنا محمد رسول الله توفى الى رحمة الله فلان الفلانى .. الدفنة بعد صلاة العصر .. الملك والدوام لله » يتوقف على رءوس الحوارى قبل ان يحود فيــكرر النداء مرتين ، لا يشرع الطفل الذى يسحبه فى المشى الا اذا حــرك هو عصاه الى الامام . يبلغ النداء رجلا جالسا بين أولاده فاذا هو يشخط فى أولاده ان يصمتوا : « اسمعوا » ، ثم ينصت فى اهتمام وجدية يشاركونه الانصات ، قد يخرج ملهوفا هلعا يستأكد الخبر من الشيخ فرحات . يصل صوت الشيخ فرحات ونواجه الى الحقول المتاخمة للبلدة فيحاول الناس الاصغاء اليه بكل اهتمام وربما أوقفوا الساقية حتى يخلو الافق من صوتها الغليظ فان سمعوا الخبر ولم يتبينوه تصدوا للقادمين من البلدة سائلين فى ود : « مين اللى مات فى البلد يافلان ؟ » فيقول هذا بكل تأثر : « فلان الفلانى تعيش انت » ، فيصيح السائل فى تأثر بالغ وقد ارعشته الصدمة : « لا اله

الا الله .. انا لله وانا اليه راجعون .. آدى حال الدنيا » ، ثم يستدير وقد فتر حماسه للعمل ، وبدأ يستعد لمغادرة حقله والعودة الى البلدة ، واللحاق بالطلعة ..

على باب دار الميت يتجمع رهط من النساء المتشحات بالسواد ، اربعون خمسون ربما مائة امراة يلبسون الاسود فى أسود نميز فيهن بعض نساء يدهن وجوههن بالازرق النيلة وطين المصارف نعـرف انهن من صلب الميت ، يتجمعن تنضم اليهن جموع قادمة واخـرى خارجة من الدار يبدون كقطع من جبال الظلام تفككت فتاهت مـن الليل فضلت ففضحها النهار . تتقارب رءوسهن يتهامسن يتفقن فيما بينهن على صيغة « الصيحة » يرددنها لبعضهن البعض حتى يحفظنها. المصبوغات الوجه يمرقن من بين الزحام المسود يقفن الى بعيـد بجوار بعضهن تصطف بقيتهن خلفهن يصرن قطيعا مهولا من الفيلة سوف تدهم فى طريقها الاخضر واليابس ، جدتى « قطيفة » ـ ومن غيرها ؟ ـ تقف فى المقدمة ، ماتكاد تصفق بكف يمناها على كف يسراها حتى تندفع جميع الاكف من ورائها بالتصفيق فيما يزحف الموكب مدبدبا فى الارض دبة واحدة بعشرات الاقدام تتلوها تصفيقة حراقة بالاكف تتبعها دبة قدم اخرى وهكذا يتوالى هدير الدب مع صكيك الاكف مع صلصلة صـوات مسـاحته مائة حنجرة رنانة تنوح تجأر على ايقاع متفجع بنغم ملتـاع يجلد المشـاعر بعذاب فادح :

يا ابو الحزام وحبكته قفله
دا انت المليح شايلاك للغفله
يا ابو الحزام وحبكته لوزه
دا انت المليح شايلاك للعوزه

والنغم النواح يشيل الدور ويحطها ! له فى القلب هزهزة وفى المآقى دموع محتبسة وفى الحلوق غصص مكتومة . امراة عابرة تفعل شيئا فى الجرن يصادفها موكب « الصيحة » فاذا هى لايخلصها ان يمر هكذا كأنه مار على عدو فتحييه احسن تحية تطلق الصوات

فى استقباله او فى اعقابه صائحة بلوعة حقيقية : « ياخو .. و .. و .. يه » . بعض الصبايا القادمات من الترعة حاملات البلاليص يتوقفن ليوسعن الطريق لـ «الصيحة» ، بأسن بحيرات الدم فى وجوههن النضرة وتتجعد الملامح فجأة فاذا هن ينفجرن باكيات فى حـــرقة صائحات : « النبى تصبر أهله وعياله يارب » ، وينخرطن فى البكاء ثانية حتى لتتقافز الدموع من عيونهن طائرة . يمر موكب «الصيحة» على عجائز هتماوات قعيدات المصاطب الخارجية فتعتدل الواحـدة منون صائحة من فم خرب ــ على سبيل مجاملة « الصيحة » فحسب « ماكانش يومك ياحبة عينى ! يا اماره يازينة الدنيا ! » . يتوقف الرجال فى الطريق يتروون ينظرون الى « الصيحة » فى استنكار وتأفف يستغفرون يقولون : « اعوذ بالله ! ده كفر بالله ! مين قال لهم يطلعوا بس ؟! النسوان دى مش لاقية اللى يحكمها ؟ » ، مع انهم جميعا رأوا زوجاتهم وهن يلبسن الاسود ويخرجن وعرفوا انهـــن ذاهبات للمشاركة فى « الصيحة » ، وربما عنف احدهم زوجته قبل خروجها ونبه عليها بعدم فعل افعال الجاهلية الاولى لكنه يكون واثقا ان كلامه لن يثنيها عن عزمها بل انها هى نفسها لا تستطيع ان تنثنى عن الانضمام « للصيحة » و .. يشملنا خوف مرعب يكاد الواحـد منا لايتعرف على وجه امه بين وجوه « الصيحة » من فرط ماتغيرت وجوههن كأنها لبست وجوها اخرى رمادية . بعضنا ينفجر باكيا . بعضنا يكتم خوفه ومع ذلك لا نملك الا ان نتابع مسيرة « الصيحة » حتى تكمل دورتها حول البلدة من شـــارع داير الناحية عائدة الى دار الميت ...

لفة او لفتان يلفهما الشيخ « فرحات » المنادى يتحــدد بعـدها الامر فى سوق اللحمة ، قد ينهض « عبد الودود » الجزار ويدخـل الزريبة مبصبصا لرقبة عجل او بقرة عجوز وقد يشيح مشوحا بيده فى فروغ بال ، والمؤكد حينئذ ان اخاه الاصغر او ابن عمه « حمامه » سوف ينسلت الى الشارع ليتسوق نعجة او عنزة او جديا صـغيرا يذبحه على شرف الميت . المهم ان « سيبة » اللحم لابد ان تنتصـب

قائمة على أرجلها الثلاثة فى ارض السوق والذبيحة معلقة فيها ، فالناس جميعا لابد لهم من تطليع الصوانى ، وكل الصوانى لابد ان تكون حافلة باللحم او بالظفر ـ سرعان مايلتف حول الذبيحة الاعيان والملاك والحرفيون ممن لديهم النقود طوال أيام السنة ، اما اولئك الذين لا يرون النقود الا فى مواسم الحصاد فانهم يحملون هم الصينية اكثر من هم كسوة الاولاد فى العيد ، لكن الواحد منهم يكون واثقا ان زوجه لابد تدخر شيئا لمثل هذه العوزة الطارئة ..

يدخل ابى عائدا من المدرسة يتافف يتاوه . نعرف انه متعب من الحصة السابعة بالذات التى بها يكون قد ظل طوال النهار واقفا فصار محتاجا لاسبرينة اسبمول يسكت بها صداع راسه ، وليدى أمى تدعكان فى قدميه لاسـ النشر والضبع فيهما وواقع الامر ـ كما نحدس فى صمت ـ انه ينذرنا بعدم مشاهدته او مشاحنته او مفاتحته فى امور تجلب الصداع كطلب النقود على وجه خاص . يخلع طربوشه يعلقه فى المشجب بجوار البالطو والبدلة الاحتياطى التى تخفيها فى بياضة كبياضة المسند صنعت خصيصا لها من ثوب قديم ، وبجوار الجلابية الكشمير والعصا اللتين سيخرج بهما للعزاء بعد قليل . يقول وهو يخلع فردة حذائه محاولا على غير العادة ان يكون لطيفا بعض الشىء مع أمى : « حنعمل ايه فى الصينية ؟! » . تقول وهى تساعده فى خلع الجورب وتكويره ودسه داخل الحذاء : « مافتش على السوق وانت جاى ؟ » ـ تقصد أن السوق لابد ان يكون فيه لحم طرأ مع خبر الميت . يقول والكذب واضح فى عينيه : « لا والله دا انا جيت من وسط البلد » ـ كان هذا هو السبب الوحيد فى كونه لم يشتر لحما للصينية . تقول أمى وهى تنادى اختى الصبية وفيما تعطيها حذاء ابى لتضعه تحت السرير : « وامسكى لى الديك أبو رقبان » . لحظتها يبدو السرور الشديد على وجه ابى ، سرعان ماينتقل الينا ، يشمل دارنا فرح خفى نكاد لولا الحياء نعلنه فما أحلى ان تاتى السكين على رقبة دجاجة او اوزة امام دارنا ، وان تنطلق الذبيحة تجرى من حلاوة الروح يتناثر رذاذ

دمها من رقبتها المفرجة فنصرخ مهللين نبتعد خائفين صاخبين لنعود فنلاحق الذبيحة ! وان كانت اوزة فما احلى آن تاخذ رقبتها بعد فصلها وسلخها نصنع منها زمارة نكاكى بها فى الحارة ! وما احلى ان يشتعل الكانون فى دارنا ان تتصاعد مع دخانه رائحة المرق والتقلية! صحيح اننا قد لاينوبنا من الطبخة سوى الاطراف والبواقى ولكن ما احلى الفتة بالارز والمرق والاحلى من كل ذلك ان لنا لصينية ستطلع بين الصوانى ..

ينطلق آذان العصر فجاة : « الله اكبر » ، يصيح الرجال فى الطريق بخشوع : « الله اعظم والعزة لله » ، تصيح النساء العجائز داخل الدور وهن يبلبطن فى المياه على ذمة الوضوء هاتفات من قلب موجوع حزين حزنا ابديا : « الله اكبر .. الله اكبر على من طغى وتجبر !» ، ثم يلتحقن جميعا بالصلاة ..

اثناء صلاة العصر يشمل البلدة سكون خرافى تتردد خلاله اصوات تخرج من المساجد هادرة : « ربنا ولك الحمد » . يتغير منظر الشوارع تمتلىء بسحب الدخان المتصاعد من جميع الدور يركض تائها فى الفراغ يتلاحم يدفع بعضه بعضا هنا وهاهنا يقيم هو الآخر مظاهرته الفريدة بما يثيره فى الانف من روائح الشبع والجوع معا . سحب الدخان تتكاثر تنذر وفوده المتعاظمة بانفجار بركان من الحزن طال حبسه داخل الصدور ..

تنتهى صلاة العصر فيدفق باب المسجد الى الشارع وفودا من الرجال وراءها وفود . لو كنا فى غير هذااليوم لتفرقت الوفود هنا وهناك فى الحوارى الضيقة اما اليوم فمعروف لديهم جميعا ان وراءهم « طلعة » لابد ان تكون مشهودة يسير فى مشهدها كل من علم بأمرها لا يمنعه الا ان يكون قد مات لتوه مثلا . يتخذون وجهتهم نحو دار الميت يحثو الخطى . « رمضان الجميل » و « على حرفوش » و « عبده الجرن » و « سالم حشله » ـ هم دائما ـ يتسابقون فى الهرولة يتفادون الاصطدام بالناس بخطوات سريعة يسبقون الوفود ، التى تؤثر فى العادة الوقوف فى زمام الشارع

العمومى مستندة الى الحوائط او مقعية على الارض . « رمضان » و « على » و « عبده » و « سالم » اول من يسرع بالدخول على الميت فى مرقده قبل الاخير والكل ينظر اليهم بابتسامة رضاء واعجاب ، انهم من خيار شباب بلدتنا من اكثرهم تضحية وايثارا عند الملمات والكوارث حتى ان نسوان بلدتنا جميعا ما ان ترى الواحدة منهن واحدا منهم يمشى فى الطريق حتى تنبرى داعية « لهم » بالستر وطول العمر اذ هى تتصور ان ظهور الواحد منهم يعنى انه ذاهب للجدعنة فى عمل ما فى مكان ما ربما لاطفاء حريق او انقاذ بهيمة او فض خناقة ، وقد تعود الجميع الخلط بين اسمائهم فما اكثر مايخاطب الناس رمضان على انه على ! وقد تعود الشبان الا يعنوا بتصحيح اسمائهم ..

تبرز الجثة من داخل الدار على أيديهم ممددة متخشبة بعدما افلح الشيخ « مرسى الخطيب » فى ربط الكفن باحكام حولها ، فى أعقابها يندلع الصوات من اعماق الدار فى هجمة همجية مرعدة تندلع معها غابة من الاذرع السوداء تشوح رائحة جائية تدهن الفضاء بلون الصراخ والفجيعة . تبدو جثة الميت طافية فى بحر الصراخ تعترضها امواجه . اخيرا يتمكن الولدان الاربعة من الخروج ووضع الجثة فى النعش فوق لحاف مطوى اعد لها . بسرعة ودربة تتقدم اربعتهم فيحملون النعش بأيديهم لوضع اكتافهم تحت اطرافه. غابة النساء المتشحات تزحف خارجة من جوف الدار كحيتان يدفعها بحر الصرات المتلاطم الامواج مابين نواح ونحيب وجار وندب عظيم ، يتعلقن بالنعش لا يردن له رحيلا ، يتوه الرجال يفقدون السيطرة عليهن لا تنفع معهن الشتائم المغلظة لا ولا الدفع بالايدى : يا نسوان ياكفره حرام عليكم ! ياخاله فلانه ميصحش ! ياخاله علانه عيب ! اتقى الله يا ام فلان ! .. ولكن دون جدوى ! بل ربما استطاع الرجال بشق النفس حفظ توازن النعش ومنعه من الوقوع ..

يضيق الرجال الواقفون فى الشارع العمومى بطول استعدادهم للمشى منذ ارتفاع الصوات . يرتفع اكثر من صوت يقترح بأن يرسلوا

للنساء الحاج « عبد البارى خلاف » ! . هو من كبار الاعيان فى البلدة ابن عم العمدة رأسا لكن الناس تحترم العمدة اكراما لخاطره فحسب مع انك لو رايته دون ان تعرفه فستظنه رجلا قليل الادب سليط اللسان غليظ اللفظ خشن المنظر ! فلقد يبدو هكذا بالفعل لكننا نعرفه أرق الناس واطيبهم قلبا ! مهزار كبير ! حلال بارع للمشاكل اكبر مشكلة واعقد خناقة يحولها الى نكتة ومسخرة يضحك لها الجميع حتى تصفو القلوب وتنمحى آثار الخلافات ! فاذا تغابى عليه احد أو رفض مزاحه فيالواقعته السوداء تختفى فى الحال شخصية « عبد البارى خلاف » الضاحكة لتحل محلها شخصية ابن ليل عات شرير نظرته توقع الفارس من فوق فرسه كلمته الغاضبة موزونة تشرخ دماغ المتلامضين الاغبياء شخطته مرعبة لمن زلف لسانه بكلمة غير مقصودة فيها جرح له تهديده للشخص المتطاول المنفلت تدير بسوء العاقبة وعيده أمر بتحقيق المصير ! يشاع فى بلدتنا أن له جنودا تعمل فى السر من بلدان بعيدة لكن بعض الخبثاء يصححون الاشاعة بأن هؤلاء الجنود المسحورين هم ابناء اخوته واخواته وهم عدد يحتاج حصره لدفتر حصر كبير اما الطيبون فيصححون التصحيح بأن اولاد العائلة ـ بكل صراحة يارجال ـ كلهم مكتملو التربية اذا وضعوا على الجرح يطيب لكنهم جميعا يقولون هذه الكلمة بخوف حقيقي تملقا لتلك القوة الخفية فى شخصية الحاج « عبدالبارى» . .

يظهر الحاج « عبد البارى خلاف » يسحب عصاه التى هى فرع شجرة حناء غير مهذب . يتقدم من حشد النساء الصاخب يمد عصاه يزغدهن بقسوة واحدة وراء الاخرى ، من تأخذ منهن زغدة تصرخ صرخة الم حقيقية ترتد بعدها نحو الدار لا تجرؤ على فتح فمها بكلمة . فلما لم يبق الا القليل منهن متشبثات بالنعش صار يوجه اليهن كلمات جارحة للحياء فى صيغة مزاح حاد تقشعر له الابدان ترتفع بسببه النبابيت ربما البنادق لو تفوه به احد غير الحاج « عبد البارى خلاف » الذى لا يتورع عن توجيه نفس المزاح لامه وزوجه ولاى مخلوق يشاء ! والكل يدرك انه لايعنيه حقا بل ربما

ضحكوا بصوت عال فيما الحديث الجارح موجه للذويهم : لستن جميعا ايها النسوان الا اصحاب كهن ومهيصة كذابة ! اكان الميت اخا لكن ياقحباوات ياقليلات الدين !؟ محروقات انتن على الميت الى هذا الحد ؟ ! نحن ايضا رجال ونستطيع نسد العيون الفـارغة ! هيا يا امراة !نت وهي قبل ان اغرز هذه العصا فى .. عيونكن !!. فاذا هن لم يرتدعن فانهن اذن يتمادين حبا فى سماع كلامه الجارح صار ينقر بعصاه على اصابع المتشبثات بالنعش حتى تتراخى أيديهن جميعا ، فيرح يطوح بالعصا بحذاء النعش حتى يصنع مسـاحة فاصلة سرعان مايحتلها الرجال وسرعان مايمضى الولدان بالنعش يلتحق بهم الناس اثنين اثنين ثلاثا خمسا خمسا . يستقيم مشهد « الطلعة » فى الشارع العمومى يتعاظم كلما اوغل فى المضى حيث تنتظره الجموع على النواصى وامام المساجد ..

عند سفح ملاصق للمقابر يتوقف النعش فتتوقف الجموع يتفكك نظام الوكب بسيح الجميع فى الجميع والمقابر من خلفهم عاليـة كجبل داكن رمادى مطل على مزرعة تشغى بالدود البشرى . أمـام النعش يتوقف الشيخ « عبد المقصود ابو غلاب » حامل شهادة العالمية من الازهر الشريف . يصطف الجمع خلفه فى عدة صفوف . يرفع يديه بحذاء اذنيه ينوى الصلاة صائحا : « الله اكبر » ، فترتفع من خلفه غابة كثيفة من الايدى بحذاء الاذان هاتفة : « الله اكبر » هذه هى صلاة الجناز لا يركعون فيها ولا يسجدون كما يفعلون فى المساجد لكن الشيخ « عبد المقصود » لاينى بين كل حين وحين يرفع يديه بحذاء اذنيه هاتفا فى تـكرار ورصانة وتأكيد : « ألله اكبر » ، فيفعـل الجميع مثله حتى يتلفت بعد وقت ليس بالقصير الى اليمين مـرة والى اليسار اخرى مرددا : « السلام عليـكم .. السلام عليكم » ، فيحمل الاولاد النعش ثانية ويصعدون به تلة المقابر ونحن العيال فى المقدمة دائما . عند مقبرة مفتوحة الفوهة ليتوقفون حيث يكون الشيخ « مرسى الخطيب » قد سبقهم وصار فى قلب الحفرة التى يتـكوم على حوافيها التراب ، يمد ذراعيه على طولها تنساب الجثة نحوهما

مائلة بدماغها نحو فوهة الفسقية التى يتصاعد من جوفها مجهول غامض كئيب ، مخيف . تغيب الجثة بداخلها . هنا ترتفع الصيحة الاخيرة من بكاء ونحيب مروعين يبدأها الشبان ثم مايلبث أن يشارك فيها العجائز والعيال تصير مناحة كبرى تصدح فيها الاصوات بالآهات المتقطعة والعبارات الغامضة المتآكلة فيما يكون « عنتر » و « جنوم » و « زناته » قد شمروا عن سواعدهم وبالفئوس راحوا يهيلون التراب فوق الحفرة لتسويتها بالارض وسط المظاهرة النائحة ، الى ان يظهر كل من « عمر خطاب » و « عبد البارى خلاف » فينهرا الجميع ويذكراهم بالله وبأنهم مسلمون موحدون بالله . . فتبدأ جموعنا تتساقط وراء بعضها متهاوية من ارتفاع التلة فى الدحديرة الى السفح المتصل بأرض البلدة ، حيث تمتلىء الشوارع والحوارى كلها بالرجال والنساء والعيال يمشون في ذهول شارد أسيف . .

يتفرق البعض الى بعض شئونهم يتجه البعض الآخر من فوره الى مندرة العزاء ، حيث جيء بحصائر اضافية فرشت على ارض الشارع استعدادا للطلمة الثالثة والختامية ، طلعة الصوانى ، وحيث جيء — كالعادة — بفقيه يقرأ القرآن من بلدة اخرى مجاورة مع ان فى بلدتنا فقهاء اشهر منه فى البلدان الاخرى واحلى صوتا وأجمل ترتيلا . يجلس الفقيه الغريب فى الداخل ينعم بالاشربة الساخنة والحفاوة البالغة في حين راح فقيه البلدة ولعله « مصطفى ناصف » — الذى سيعمل مساعدا للفقيه الغريب — يقرأ بصوته الرنان الخلاب والحضور يخيم عليهم حزن متجهم بغبار المقابر يبدو عليهم السأم لا يكفون عن انتزاع الساعات من جيب الصديرى والنظر فيها خلسة ربما لتذكير الفقيه بأن وراءهم — صلاة مغرب ربما احتاجت لوضوء جديد . .

آذان المغرب ايذان بطلوع الصوانى ، حيث يبدأ الصبايا من أبناء الدور البعيدة عن مندرة المعزى فى الخروج ، تظهر طلائعهن تنشر فى الجو رائحة الطعام الساخن بالسمن المقدوح والتقلية ثم ماتلبث الطلائع ان تتكاثر وتتكاثر تخرج الصبية من دارها حاملة الصينية العريضة

فوق راسها تنضم لها أبنة الجيران ، كل مجموعة صبايا من حى واحد أو حارة واحدة يتجمعن ليمضين معا ، تمتلىء الشوارع والحوارى بهن زرافات ووحدانا بوجوه صابحة كالورود واجساد تتلعبط تحت الصوانى فى حيوية مبهجة تتقابل جماعات الصبايا على النواصى وعند تقاطعات الشوارع ينضم بعضهن الى بعض تتعاظم جموعهن كأننا فى يوم عيد للصوانى تختال فيه الصبايا تتجه أطيافهن نحو مندرة العزاء يتوقفن على مقربة فسرعان ماتنضم اليهن جماعات قادمات من اطراف البلد البعيدة ..

يتجمع الرجال فى مندرة العزاء تفيض بهم يحتلون مساحة الشارع على امتداد طويل ورهط الصبايا متجمع فى ناحيتين متقابلتين . « ابراهيم الصالحى » صانع البرادع الدرويش فى الطريقة الشرنوبية، و « طاهر الجرف » تاجر الحبوب والقطن الذى حج الى بيت الله سبع حجات ، و « عبد القادر السعيد » الذى كان خياطا ونبذ المهنة واشتغل تومرجيا فى الوحدة الصحية .. ثلاثتهم - كالعادة دائما - يظهرون واقفين فى الشارع والباقى جلوس ، هم دون غيرهم كأنما باتفاق سرى ارتضى اهل البلدة ان يتعاملوا مع صباياهم وحريمهم حيث قد اشتهروا بحلاوة اللسان وعدم صدور العيبة منهم فضلا عن صلاحهم وحسن اخلاقهم وطهارة ذيلهم ، يختص كل من ابراهيم وطاهر بجانب فى حين يقف عبد القادر فى المنتصف ، يذهب الواحد منهم الى حيث تقف الصبايا ، فما يكاد يقترب من الصبية حتى تهبط هى فى الارض قليلا فيحمل عنها الصينية بين يديه يمضى بها فى حذر يسلمها لعبد القادر هامسا باسم صاحبها ، فيمضى بها الى حيث يجلس صاحبها فيضعها امامه ومن بجواره . ليس كل من هاهنا جاءته صينية باسمه من داره لكن الجميع هاهنا لابد أن يأكلوا! ولابد لاهل الميت أن يأكلوا معهم حتى الشبع على الاقل مجاملة للصوانى . يحط على البلدة كلها صمت ونيس تتخلله اصوات المضغ الجماعى ورشف الشوربة وبرطمة بعض الآكلين وهم يستحثون بعضهم البعض على مزيد من الاكل ..

تبدأ طلائع الشبعانين خارجة على امتداد الصوانى الى بقعة خلية حيث يوجد طست نحاس يرتفع من وسطه قلب هرمي مخرم بخروم دقيقة له راس مستوية بحواف توضع فوقها صابونة ، وثمة شاب لعله « رمضان » او « علي » يقف أمام الطست ممسكا بالابريق النحاس المملوء بالماء ، يتقرفص الرجل امام الطست ممسكا بالصابونة يمررها بين يديه والماء يسيل عليها من بزبوز الابريق .. ثمة طسوت واباريق اخرى كثيرة هنا وهناك . فاذا فرغ الرجل من غسل يديه وفمه نهض ليجد فى أنتظاره من يقدم له الفوطة ليجفف يديه بها . ثم تبدأ عملية رد الصوانى ، حيث يشرع كل من « طاهر الجرف » و « ابراهيم الصالحى » فى تزويد « عبد القادر السعيد » بها ، اذ يمسك بالصينية مناديا اسم صاحبها او اسم ابنه الكبير او اسم الصبية نفسها ان كان مقربا من أهلها وذا عشم ..

ننطلق نحن العيال فى اثر الصوانى عائدين الى دورنا مسرعين لعلنا نصيب شيئا مما تبقى على الصينية من لحوم نتناوله على عجل ونحن نمنى النفس بليلة ولا كل الليالى ، تضاء فيها الشوارع بالكلوبات المبهرة الضوء يرتفع صوت الفقيه القارىء بكلمات حميمة دافئة نتبين فيها كل نفس ذائقة الموت ويا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية .

٢ ـ الغنـــــــــوة

.. تذكرت ان خبر وجود عزرائيل فى حارتنا قد بلغنـا أصيل امس ، حينما عوى كلبنا فوق السطح عواءه ذاك المقبض المطوط المرتعش بالخوف والياس والمواجهة ..

اذ ذاك انقبض وجه امي وصاحت فيه بغيظ حاد :

ـ امشى داهية تاخدك !

ثم اخذت تتطير قائلة : « ياترى انت رايح لمين فى الحارة ؟ » . ارتعد بدني كله لحظتها . قلت لها :

ـ « هو مين يامه ؟! »

قالت كانها غائبة عن الوعى :

ـ « سيدى عبد الرحمن ! » ..

قلت لها وقد رحت انتفض :

ـ « سيدى عبد الرحمن من ؟! » ..

ـ « عزرائيل ، الذى يقبض الارواح ويعود بها للذى خلقها !!» ..

صارت أسناني تصطك ببعضها ، احاول القول :

ـ « ا .. ي .. ه .. عرفك أنه هنا فى الحارة ؟! » ..

قالت :

ـ « عواء هذا الكلب الملعون ! انه لايعوى هـكذا آلا حين يرى عزرائيل ! فالكلب هو الوحيد الذى يرى شخصية عزرائيـل قابض الارواح فيرتعد فيعوى هكذا !! » ..

ثم انتبهت امى الى أنها تكلمنى ، فانزعجت فجاة وبدا انها تضايقت منى ! فلكزتنى فى جنبى برفق صائحة :

« انت لمض ليه وتحب كتـر الكلام ؟ ! » ..

ثم صرفتنى .

فى حضن عزرائيل !

ادركت الآن ان علم امي بخبر وجود عزرائيل في سماء حارتنـا

منذ الاصيل هو الذى جعلها تقضى الليل ساهرة فى انتظار اعلان وصوله بين لحظة واخرى من اى دار فى الحارة علم الله اى دار تكون ! وهى لابد قد رشحت فى ذهنها بعض ناس من جيراننا لاستضافة عزرائيل الليلة . وكان من الواضح انها ترشح ناسا آخرين درءا لخاطر أن تكون دارنا والعياذ بالله ـ الشر بره وبعيد ـ هى المرشحة لهذه الضيافة المفروضة بامر من الملأ الاعلى كما يردد ابى دائما . ثم ان امى ككل الامهات فى بلدتنا تحب ان تشارك فى حمل المصيبة عن اصحابها خيرا من ان تكون هى المعنية بها ..

ليلة امس صحوت على صوت ملتاع شق جسد الليل الصامت ومزقه عدة مرات متتالية بدا فى كل منها انه يلفظ النفس الاخير ، ثم كف تماما ايحل محله طنين الصمت مختلطا بنقيق الضفادع وصفير الصراصير . ولم أكن اعرف ان كنت قد سمعت الصوات حقا ام خيل لى ذلك بفعل الخوف من وجود عزرائيل فى سماء حارتنا ، الذى نام بجوارى ؟ لحظتها كانت ثمة يد تتجول تحت ابطى وحول ضلوعى عرفت انها يد امى تفلينى من القمل والبراغيت التى تسكن اجساد كل الولاد فى بلدتنا ويقول الولاد أن الملك نفسه فيه قمل مثلنا . وكانت امى تتمتم بكلام غامض هامس ، فانتفضت جالسا .

قالت امى بخوف مفاجىء :

ـ « مالك ياولد ؟ » ..

قلت :

ـ « عايز اشرب » ..

تناولت القلة من صينية القلل الموضوعة فوق كرسى عباسى مجاور لاجسادنا المنطرحة فوق ارض المقعد المبنى بالخشب البغدادلى فوق سطح دارنا لننام فيه صيفا . اسندت القلة بين يدى الى ان كرعت واغرقت ثيابى . قالت وهى تعيد القلة لمكانها :

ـ « بتترعش كده ليه ياولد ! باسم الله الرحمن الرحيم ! » ..

قلت :

ــ « انا كنت سامع صوات قريب من وداني » ..

قالت فى تأثر شديد :

ــ « دى ست الحسن باين عليها ماتت ! مسكينة ربنا ريحها مــن الغلب ! نام انت مالكش دعوه ! » ..

فتلاعب النوم بى وقتا طويلا قلبنى فيه على الجنبين ونشط جيوش البراغيث والاكلان فى جسمى رغم نشاط يد امى . تأكد لى ان هذه الهزهزة والنهنهة العنيفة هى بكاء امى المكتوم ، فاصابنى قلق فوق قلق ، وقلت نجاة :

ــ « امه هى ست الحسن تقرب لنا ؟ » ..

مرة اخرى انزعجت امى من صيحتى المفاجئة ، فلكزتنى قائلة :

« لا .. لكنها غلبانه ووحدانية ! العيا نحل وبرها ماخلاش فيــ ! » ..

ثم اعلنت بكاءها ولكن بصوت خفيض حتى لا يصحو ابى واخوتى قبل الاوان خاصة ان ابى المدرس وراءه دائما حصة اولى . وعنــدما كان النوم يغلق على جفنى آخر ابوابه ويغيب بى فى جب الظلام اللا نهائى كنت لا ازال احس بيد امى وهى تنسحب من تحت ثوبى ، وبامى وهى تنهض واقفة وخطواتها تدب الارض فى اتجاه الباب ، وبصوت الباب وهو يفتح ويغلق وراءها ، فأيقنت انها ذاهبة للتأكد من ان عزرائيل تجاوز دارها الى دار اخرى وان كانت لصــــقها مباشرة ! .

المعلم حزمبل

تذكرت هذا كله دفعة واحدة فيما انا مقبل والعيال من المدرسة قرب الظهيرة ، اقترب من حارتنا منتشيا بأننى قد انعتقت من بقية اليوم الدراسى ، وبأننى فى غد سوف اظل نائما حتى شروق الشمس وسوف أنتشي بمهرجان صلاة الجمعة والغداء جماعة مع ابى واخوتى

نتحلق الطلية حول مرق وثريد ومنابات من لحم الكرشة والفشة والصليبة او السمك الشر . ولم اكن اعرف ان اليوم يدخـــر لى مهرجانا آخر تعودت وصحبة العيال ان نفرح به أيما فرح ولكن دون ان نظهر ذلك لاهلنا او لاى احد من الكبار ..

التجمع الحزين المهيب ماثل امام عينى تقشعر منه اطرافى كجيوش نمل تروح وتغدو داخل عروقى . انخطفت خطفة مفاجئة انتبهت الى ان جميع العيال المتجمعين من اولاد حارتنا . كأننى أفتح عينى لبرهة وجيزة اثناء الاستغراق فى حلم تبينت ان هذا المنظر يقوم فى نواحينا ، فى قلب الحارة الملتصقة بحارتنا ..

هى حارة تلتصق ظهور دورها بظهور دورنا التصاقا مباشرا نعيش مع اهلها ويعيشون معنا فى كل صغيرة وكبيرة ومع ذلك فاننا اذا أردنا دخول دورهم من ابوابها فلابد ان نمشى مسافة طويلة ونلف مـن آخر الشارع لنعود القهقرى من الشارع الجديد لنصل الى الدار التى نريدها ، ويحلو لنا ولعيال الدور الملاصـقة لنـا من الخلف ان نتبادل الزيارات نعاكس بعضنا بعضا من خلل الســـطوح ، وبعض سطوح الدور متساوية ، فبقفزة ساتر طينى او عبور فتحة سلم نصير فى الدار الملاصقة . اخبار الحب والغرام بين هذين الشـــارعين المتباعدين تقربها السطوح ، وأن باعدت بينها الجدران والابواب ، وتنميها ، فان الاخبار الواردة عبر الاسطح لهى فى العادة ادق الاسرار واكثرها اثارة وسحرا ودفعا للتصديق ! ..

الجمع كان على اول حارة نافذة الى الشارع الخلفى ، وكـــان مجهول العائلة رغم كثرة الجلوس ، ليس فيه تظاهرة عائليـــة توحى بمقدار الميت وجلال شانه ..

تلكأت فى السير ومخلاة الكتب والكراريس مشنوطة فى كتفى وانى لاحبها واحب ان يرانى بها عيال حارتنا الذين لا يذهبون الى المدرسة مثلى لان آباءهم ليسوا مدرسين كابى وليسوا يحبون وجع دمـــاغ المدارس الا ان العيال ينظرون الان الى مخلاتى بحسد اذ انها تقربنى

درجة من مرتبة الرجال وتعطينى الحق فى اقتحام الجمع وأجباره على الوقوف لى واستقبالى ، لكننى لم اكن لاجرؤ على ذلك أبدا . اننى فقط مغرم بالفرجة على مايحدث ، ومغرم كذلك برؤية ناس تعودت ان احبهم الحب كله ، يفعلون أشياء تعودت ان احبها الحب كله ..

المعلم « حزمبل » اول من القاه على مدخل حارتنا ، الوحيد الذي يشذ عن هذا التجمع فيجلس وحده على عتبة داره ، التى تجعل لحارتنا شكلا لطيفا دون بقية الحوارى ، اذ هى خارجة عن جدران دور المدخل وبابها فى الصدارة مفتوح على الدوام فيبدو وكأنه مدخل حارتنا ، كثيرون من الاغراب القادمين لاحد فى حارتنا يستخفهم حماس المشى فيدخلون من هذا الباب وهم لايظنون أنهم اقتحموا حرمة دار ؛ لا يوقفهم الا صياح المعلم « حزمبل » المستهجن الصارخ ، أو قد يدوسون على فراخ وبط واطفال زاحفة ، ثم يواجههم باب قاعة مفتوح على نيام ، فما يلبث الداخل حتى يرتد فى الحال وقد صار فى نصف هدومه من الخجل والتورط : أستغفر الله ! استغفر الله ! عدم المؤاخذة ياجماعة ! ثم يخرج ليجد الشارع العمومى قد صار فى مواجهته تماما ، فيستدير ثانية فى ارتباك ، وغالبا مايشير له « حزمبل » الى فتحة الحارة وهو يبتسم فى مرح ، فيمضى لينحرف خلف دار « حزمبل » قليلا ثم يكسر يسارا ثم يواجه بامتداد الحارة ، التى يسكنها رهط عظيم من الاقباط الذين اذا حلفوا بالمسيح الحى صدقتهم أمى واذا حلفت امى بأشرف خليقة الله محمد صدقوها تماما وامنوا على كلامها ..

معظم رجال الحارة يجلسون الان مع الناس لاشعار اهل الميت انهم جميعا تحت امرهم فى اى طلبات او خدمات ، لا نكاد نعرف المعلم « عزيز عبده » ؟ من الحاج « عرجاوى » ، ولا المقدس « جرجس غطاس » من الشيخ « عبد الباسط بقوش » ، كلهم نفس السحنة ونفس الجلباب ذى الاكمام الواسعة وكلهم فيهم عوجة لسان بلدتنا وميلها نحو النطق العربى الفصيح المنحرف عن الاعراب قليلا ..

انما المعلم « حزمبل » الذى يبدو الآن جالسا معهم نظرا لامتداد الجلسة من اول الناصية حتى منتصف الحارة ، هو فى الواقع جالس وحده مندمج فى شغله . هو يشتغل فى البوص ، يستجلبه من تلى شوطىء القنوات والاحراش البعيدة ليمزق كل بوصة - وهى خضراء - الى شرائح رفيعة يجدل منهاالسلال والاسبتة . مدقق هو فى مسائل الحق وكلمة الحق ، حقك وحقى ، والصراحة ما احسن منها ، للاعور يقول : فى عينيه ، انت - عدم المؤاخذة - أعور . الناس فى بلدتنا - لا ادرى لم ؟ - يطلقون على كل قبطى لقب المعلم ، « وحزمبل » فى الاصل مسلم ، ويسكن مثلنا فى قلب الاقباط مثلما هم يسكنون فى قلبنا الحيط فىالحيط والقلب فى القلب ، لكن أهل بلدتنا يطلقون على « حزمبل »لقب المعلم لانه يتشبه بأقباط بلدتنا فى الامانة وحسن الخلق وطيب العشرة والحرص على الجيرة . ويقال أن « حزمبل » ليس اسمه الحقيقى ، انما أطلق عليه أيضا لانه كان يذكر الناس بشيخ متزمت يدعى الشيخ « حزمبل » كان يفتى بأن « نعيمه » بائعة الفجل اذا نادت على فجلها بصوتها فى الشوارع فى رمضان فنداؤها يفطر الرجال !! ..

سبع صنائع فى يد « حزمبل » لكنه شحاذ على الدوام ، لايبدو عليه الخير ابدا ، فالقميص العبك واللباس ابو دكه لا يفارقان جسده صيفا أو شتاء . يقال انه يصرف دخله على الافيون والحشيش والسجائر اللف . يتطوع بادارة طلمبة مسجد الجرانة حيث يمسك بمقبض طارة فى حجم طارة الساقية ، يديرها لتشفط الماء من آبار ارتوازية تحت الارض ، عليه أن يملأ الصهاريج المبنية بالاسمنت الممتدة بطول مترين وارتفاع متر ، وتنزل من أسفلها حنفيات متراصة على الجنبين ، فى نظير ان يخصص له اهل الحارة والحى جعلا عند الحصاد يحصله من محاصيلهم ، فتراه يترقب مواعيد الدراس فى الاجران ، يطلق اولاده يجمعون له اخبار النوارج ، يعرف ان فلانا سيذرى قمحه غدا ، وان علانا لم يضم بعد ، المهم انك عند التذرية تجده واقفا امامك بكرشه الكبير الذى يشلح قميصه ، وعصاه التى

كانت فرع ورد ، فوق راسه طربوش مغربى هرمى الشكل أحمر ممتهن بزيت العرق والغبار ومنجعص مع ذلك فى خلفيـة الراس الصلعاء جعصة بلطجى زلنطحى خفيف الظل . لا يتكلم كثيرا ، لكنه اذا أسند عصاه فى الارض واراح ذقنه عليها ومد بوزه نحو المتكلمين بدت على وجهه أفصح العبارات واحكم الحكم ، مع خبث شـديد لوضوحه تضحك له كثيرا فتقره وتعترف بأحقيته فى ان يأخذ منك ما يريد ، خاصة وانك فى الاصل لا تعامله باعتباره اجيرا يطـالب باجره او بانما ينتظر حسنة ، والا افسدت الحسنة من اساسها ؛ انما أنت تعطى هذه الحسنة للمسجد زكاة عن محصولك ، ولا بأس عندك من أن ينالها من يعرق فى استحضار ماء للوضوء ، ثم ان معظمهم يستحم فى المسجد لاسيما بعد ليلة السوق أو ليلة الخميس ، حيث يكثر الانتظار امام « محلات الادب » المغلقة على من بداخلها ، ويكثر النقر على الابواب من الخارج استحثاثا لهم على الخـروج قبل فوات الصلاة ، والكل يعرف ان من بالداخل يستحم متطهرا من رجس الأمس الذى يرددون اسمه امامنا فلا نعرف معناه ولا نعـرف لماذا يقع هذا الرجس فى ليلة الجمعة وليلة السوق بالذات . الكل يعذر الكل ولكن لفظة « احم » تظل تنطلق من الداخل بفلظة وسماجة مغيظة حقا . والكل على الميضاة يفاجأ ساعة الذروة ــ خاصة عند صلاة الجمعة ــ ان المياه ضعيفة جدا تنزل من الحنفيات كالخيوط الواهنة ، عندها تبدأ الاصوات فى لعن المعلم « حزمبل » ، وتضغط على لقب المعلم هنا كاشارة خفية خبيثة الى انه باعتباره معلم فهـو ضد الصلاة !! وهو يقصر فى ملء الصهريج ! . يتذكر الجميع وقفته عند الحصاد كأى دائن ، وشغلة البوص هذه التى لابد ان يخير نفسه بين ان يتركها ويتفرغ للطلمبة أو يترك الطلمبة لخادم آخر متفـرغ لها ، وعليه ان يفهم هذا من تلقاء نفسه ويشم !..

لكن الذين يختشون ــ مع الاسف ــ قد ماتوا . هكذا يفتى سيدنا الشيخ « جمعه » فقيه الكتاب ، الذى يتوضأ على حس الفـرض الواحد عشرين مرة على الاقل بفعل الوسواس الخناس الذى لايسمح

له ان يوسوس في صدره اثناء الوضوء فيظل يصده بالعياذ بالله عشرات المرات يعيد بدء الوضوء اثر كل عوذة ، الى ان يتأكد من اختفاء ابليس من ذهنه فيعتمد الوضوء الى النهاية !. وابليس هذا هو اى فكر او خواطر تطرا على ذهنه وهو يتوضا فيما عدا التفكير في ذات الله والتيقن من الخشوع له لحظة الوضوء . نفس مايوصينا بفعله عند الوضوء وعند الصلاة ، في كتابه الكائن لصق دار « حزمبل » مباشرة ، اذ ان « حزمبل » يعتبر شقيقا للشيخ جمعه ولكن من ام اخرى وكانت دارهما في الاصل داراً واحدة قبل ان يموت الاب ويتنازع الاخان على الدار فيستقل « حزمبل » بهذا الجزء منها ويفتح فيه هذا الباب الغريب ، واذا كان الشيخ «جمعه» يحلف عند انفعاله بطربة ابيه فان « حزمبل » يحلف عند انفعاله بحياة امه « جل الخالق » رغم انه ورث عن ابيه دارا ولم يستفد من حياة امه شيء .. يوصينا الشيخ « جمعة » تلك الوصية فيما هو ممسك بالمقرعة ونحن جلوس على الارض نرتعش في حيرة وذهول. اذ اننا لانعرف بالضبط كيف يمكن للمرء منا ان يتمثل ذات الله فلا يفكر الا فيها لمدة تزيد عن ساعة زمنية هي عمر كل صلاة ، فما بالك بالخمس ! ومابالك بالذين يمسكون بالمسبحة ليل نهار يتمثلون ذات الله ويتفكرون في جبروته مع كل حبة تلمسها اناملهم قبل ان تسقط الى شقبقاتها في جب لانهائي !..

في العادة ينتهي الامر بان يتطوع واحد او اكثر من شباب المصلين فيتعلق بطارة الطلمبة ساعة او ساعتين ينوبه ثواب . والمعلم « حزمبل » يعرف ان الامر سينتهي على هذا النحو ، ولذا فهو يغيب عن الطلمبة مطمئن البال ، ولديه الرد جاهز على الدوام : ربنا يجعلنا خداما للواجب . ذلك ان « حزمبل » مكلام ، اذا فتحته في الكلام لا يسكت الا ان اسكته بأى شكل . لكنك في العادة لن تسكته ، اذ انه سيفجاك ببعض المعلومات المبهرة ، او ببعض الحكم المفيدة ، او الامثال الشعبية الرادعة . لا تسل كيف وردت اليه هذه المعلومات وهذه الحكم ، فلقد انتهى القوم من بحث هذا من سنين طويلة ولم

يتوصلوا لشيء محدد قط ، حتى عمره لا احد يعرف له تحديدا صادقا ، ويقول الرجال الكبار انهم « طلعوا » على الحياة فوجدوه هكذا لم يتغير ولم يتبدل !..

على قدر مانراه هزأة لاحق له فى الاحترام او التوقير نراه فى لحظة اخرى فيلسوفا حافيا او ساحرا مغربيا . ومهما هزأه الناس فانهم لا ينسون له فضل افحام الشيخ « جمعه » فقيه الكتاب حينما ساله عن معنى الحنفية ، فى جمع من المتسامرين على مصطبة دكان « حماده » تاجر الحبوب المواجه لحارتنا فى الشارع العمومى . يومها قال الشيخ « جمعه » محاولا السخرية من « حزمبل » الذى لا احد يعرف انه شقيقه الا ابناء حارتنا ، ان الحنفية معناها الصنبور الذى ينزل منه الماء حينما نديرمحبسه . قال « حزمبل » متجاهلا سخريته : فلماذا سمى الصنبور بالحنفية ؟. فحار الشيخ « جمعه » جوابا ، وتلجلج ، فقال المعلم « حزمبل » ان الخواجات لما اخترعوا هذا الصنبور ـ وينطق حرف الصاد مخففا بين الصاد والزال راسما فى الذهن اسما قبيحا لشيء قبيح ينفجر له الجميع ضاحكين بعمق فيما يرمقونه بنظرات لاعنة ـ أردنا نحن ياأولاد العرب ان نستخدمه مثل الخواجات المتقدمين، فافتى علماء الدين ـ على كل مذهب ـ بان هذا لايجوز شرعا ، لان سنة الوضوء أن تاخذ بيديك من بئر أو ماعون وتغتسل ، والنبى عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام لم يعرفوا الوضوء من الصنبور ، وكانت مشكلة كبيرة ارتطمت لها ادمغة الحنابلة بالشافعية بالمالكية وكلهم رفضوا جواز استخدام هذا الصنبور ! اما اتباع مذهب ابى حنيفة فانهم قد افتوا بجواز استخدامه لان الحل الوسط جاهز دائما فى أيديهم ، اذ قالوا فلنترك الماء ينزل من الصنبور فى ماعون ويغرف المتوضىء من هذا الماعون ، ولانهم اغلبية فان استخدام الصنبور قد شاع واطلق الناس عليه اسم الحنفية نسبة الى اتباع مذهب ابى حنيفة الذين افتوا بجوازه ، ومن هنا بنى تحت كل صنبور حوض ..

يومها انسحر الجميع بهذه الحكاية وانفرجت اساريرهم من فرط

الشعور بالامتنان والبهجة لهذه المعلومة التاريخية النيرة . لكن احدا منهم لم يكن ليصدقها وان اعجبته ، لولا ان بعضهم على استحياء وتردد اعادها فى صلاة الجمعة على مسمع الشيخ « عبد المقصود ابو غلاب » حامل شهادة العالمية من الازهر الشريف، فاذا به يؤيدها بكل حذافيرها ويصف « حزمبل » بأنه ضرس عجوز لديه الكثير من المعرفة والمعلومات !.

***

اخترقت المنظر متوجها الى دارنا الكائنة بعد حودة كبيرة، المتميزة بكونها من طابقين ، واحد ارضى من الطوب النيىء والثانى من الخشب البغدادلى يسمى المقعد ..

لم اجد فى دارنا احدا ، فرميت المخلاة وخلعت الحذاء الكاوتشوك الابيض والثوب النظيف ، ولبست الجلباب القديم ، فتحررت بذلك من قيود كثيرة. فى الدهاليز الجوانية كشفت غطاء الصحارة الخشبية واخذت منها رغيفا صرت اقضمه . فوق الفرن رفعت غطاء حلة فوجدت تحته بيضة مشوية وباذنجانة محدقة ، فعرفت ان ذلك هو غدائى تركته لى امى قبل ذهابها الى دار الميت . اكلت حشرا لكى اخرج بسرعة حتى لايفوتنى شىء مما قد يحدث ..

لما رفعت قلة الماء لاشرب تذكرت سيدى « عبد الرحمن عزرائيل » الذى كان فى حارتنا ، وفزعى ليلة امس . ثم تذكرت ان « ست الحسن » هى التى ماتت ، فارتعدت هذه المرة واحسست اننى يجب ان ابكى او افعل شيئا يدل على اننى حزين بالفعل من اجلها ..

« ست الحسن » اذن هى التى ماتت اليوم !! ياله من خبر يستحق ان انزعج منه . طاف بذهنى موكب من وجوه عيال حارتنا وقد بدا عليهم الحزن والبكاء رغم اننى رايت بعضهم منذ برهة يجرى ويلعب ضاحكا صاخبا ! اتراهم لا يحبونها مثلى ام انهم لم

يعلموا بخبرها بعد ؟!. اما انا الذى اعلم منذ الامس فمابالى لم أبك ؟! الان احدا لم يشجعنى ؟ ربما .

الدار المضيفة

دار « ست الحسن » ملاصقة لدارنا من الخلف ، لهـــا جزء كالسرداب يلتف حول دارنا لينتهى بباب يفتح فى حارتنا . نعتبرها من سكان حارتنا بموجب هذا الباب رغم أنه لايفتح ابدا ، وتعتبر نفسها من اهل الحارة الخلفية لان الباب الكبير لدارها يفتح عليها وهى تستخدمه على الدوام . استطيع ان اقف على سرير امى ذى العمدان الحديد والعساكر النحاسية وانظر من الشباك فأرى دارها بكل مافيها من خلال فنائها غير المسقوف : القاعة التى تنام فيها هى وزوجها « عز الرجال خلاف » ذو العين الواحدة ، والخزنة التى تضع فيها الكراكيب والمعاش وينام فيها ابنها « سعد المجلى » الذى أنجبته من زوج سابق يدعى « رجب المجلى » . وكان « رجب » هذا قصير القامة ربعة لا يحب الشغل ولا وجع الدماغ ، يقضى يومه متطفلا على مجالات المصاطب والقعدات التى ينصبها الناس لانفسهم فيأكل اكلهم ويشرب شايهم سفلقة دون ان يشارك بأى شىء ، ولهذا اسموه «بالمجلى » يعنى — كمايقول ابى — المتطفل على المجالات بغير لزوم . اما اسمه الحقيقى ف « رجب ربيع » .

ويقول رجال حارتنا ان « ست الحسن » هى التى طلقت زوجها هذا طلقة بائنة يوم رمت عليه يمينا بالطلاق من ذراعها الا يدخل بيتها الليلة ، فلم يدخله بعد ذلك ابدا !!..

لكن عجائز حارتنا الهتماوات يقلن ان « رجب المجلى » طفش من « ست الحسن » لانها لم تكن ترضى له فى الفراش ولهذا لم تنجب منه غير ابنه « سعد » ، وقد خرج ابوه يطلب الرزق لدى اهل له فى بلدة بعيدة ومن يومها لم يعد ، ولا احد يعرف أن كان قد طلقها لدى مأذون شرعى أو بينه وبين نفسه لكنها تزوجت فى النهاية من « عز الرجال خلاف » الاعور على يد مأذون شرعى مثل كل خلق الله .

وقد اكدت لى جدتى « معزوزه » وهى تسبح بالمسبحة أن « ست الحسن » كانت تحب « عز الرجال خلاف » منذ صباهما لــكن النصيب رماها على المجلى وبقى « عز الرجال » بلا زواج فلما رآها قد انفصلت عن زوجها تقدم لها ففرحت به وتزوجته بدون قيد ولا شرط .

فرعان من الصبار

ليس فى « ست الحسن » شيء من الست ولا من الحسن . هى مجرد جسد اعجف مصلوب تحت جلباب من الشيت الكحلى الغامق لا يبلى ابدا ولا تخلعه قط ، وقد بات من طول عشرتها يحمل شكلها ويصعب عليه ان يترك جسدها للعرى . وجهها استغفر الله العظيم ، ها انذا يقشعر بدنى اذ اتذكره الان رغم انني لم يكن يحدث لى ذلك. وجه مفقع يبدو كالرغيف اليابس قرضه فار ، ويبدو كان ثمة من نقرشه بشعلة سيجارة فصنع فيه ثقوبا ضامرة كحبيبات الزبيب ، عند غضبها يصير كالكرة التى نصنعها من طربوش قديم محشو بالخرق نضربها باقحف الجريد ونسميها لعبة « الحكشة » ..

ضحوكة هى وودودة واليفة وغلبانه . هى الوحيدة بين نســاء بلدتنا لا تغطى راسها بشاش او باى شيء ، ولا تستحى من ذلك قط ، ولعلها لم تكن تحتسب نفسها من بين النساء اصلا . اذا استعدت للعراك تغلب شارعا باكمله ، بالشتائم وحدها ، اقذر شتائم واطرف زعيق . الكل يسمع منها شتيمته باذنه فلا يابه بها او يرد عليها ، لانه فى الحقيقة لم يفهم من زعيقها المتواصل اى شيء وان كان قد ميز بعض الكلمات . اما ان تعاركت مع ابنها « سعد المجلى » سبت له قلة اصله وخسة ابيه ، حتى ليغلق الولد على نفسه خزنته ويتركها تعوى . وان تعاركت مع زوجها الحالى « عز الرجال خلاف » سبت له الاخضرين وعيرته قائلة : « يا اعور العين مامنجوس » . فيرد عليها قائلا بلسانه الالدغ : « اسم الله عليكى ياصفره ياام عله » ، ثم يظل طول الليل يندم على الكلمة فلا يفيده الندم ولا يغيثه من صوتهــا وهياجها سوى ان يخرج بجرامه الصوفى العتيق لينــام فى مسـجد الجرانة يوما او يومين يعود بعدهما الى زوجه من جديد حاملا لها شيئا تطبخه ، وبذلك تنتهى المشكلة كان لم تكن ، لكن « ســت الحسن » تظل بعدها اياما تعدد للجيران ميزات « عز الرجــال

خلاف » وطيبة قلبه ولشرح لهم كراماته التي رات منها الكثير باعتباره من اهل الله المجاهدين في سبيله يظل طول الليل يقرا « الورد » ويعيده . .

الا ان عودة « عز الرجال خلاف » ل « ست الحسن » بعد كل مرة يهان فيها تظل موضع سؤال والحاح من جانب الرجال المازحين على الدوام . يقول المعلم « حزمبل » انها تملك سقفا ينام تحته ويدا تغسل هدومه وتطبخ له اللقمة . فتقول جدتي « معزوزه » حين بلغها هذا الراى على مصطبة دارنا في اعماق الحارة :

« « عز الرجال خلاف لا ينقصه السقف ولا غسل الهدوم ! » . .

وانها لصادقة ، ف « عز الرجال خلاف » لا يهمه ان ينام في زاوية او مسجد او حتى في الشارع تحت حائط . .

« عز الرجال خلاف » له اكثر من شغلة هو الآخر . انه في الاصل فلاح اجرى ، لكنه منذ التحق بخدمة شيخه « مدحت الشرنوبي » وكان صبيا صغيرا ، ومنذ اخذ « العهد» على يديه وكان شابا يافعا ، اصبح خادما في الطريقة الشرنوبية لا يبرح مكانها الذى يتحدد بوجود الشيخ اينما حل . الشيخ يحبه وكل رجال الطريقة يستسهلون طلب الاشياء منه ، ربما لحلاوة اسمه وسهولة كلمة هات كذا ياعز الرجال ، و « عز الرجال » يطلع ينزل يخدم بكل صدق واخلاص ومزاج اذ ان الخدمة امر محبب اليه ، يمسك بالمقطف الحافل بانصبة اللحم التي يوزعها النقيب على الذاكرين ليلة الحضرة ، يجهز مائدة الشيخ ، يوصل اولاده الصغار الى المدرسة ، يعود بهم اخر النهار ، يشترى طلبات الشيخ والمريدين من الدكاكين والاسواق . لامانته عينه الشيخ مسئولا عن الاعلام والشارات والسيوف الخشبية والطبول التي تخص الطريقة ، يتولى نقلها الى الموالد في رحاب البدوى والدسوقي والحسين والقنائى وابي العباس والقبارى وكافة الليالي التي يقيمها اهل الله لاهل الله ويدعون اليها الطريقة الشرنوبية لاحيائها بذكر الله ، وما اكثر محبي هذه الطريقة في بلدتنا فضلا عن مريديها وخدامها ، يتولى توزيعها على الذاكرين ، يتولى نصب السرادق واستلام الشقة المؤجرة لنوم الشيخ واجتماعاته وسرحاته الذهنية ومجاهداته . .

شدة قرب « عز الرجال خلاف » من الشيخ اعطته حقوقا كثيرة لا تمنح الا لمن هم على مرتبة مجالسته ومبادلته الحديث ، هؤلاء هم الذين يقودون مجالس الذكر . .

شاهدته بعيني ذات حضرة اقيمت فى دار « المصيلحى » بحارتنا واستضيف فيها الشيخ ، حيث اصطف الذاكرون للذكر فى صفين طويلين بعد ان شبعوا من الاكل ، ومر « عز الرجال خلاف » حاملا الشاى للشيخ فى الداخل فرآهم ينتظرون . فتامل حواليه ، فوجد ثلاثا من نواب الشيخ يتعازمون على الامساك بالطبقة ـ طبقة الذكر يعنى ـ هذا يقول لزميله من باب التبجيل والتوقير : تفضل يا فلان أمسك الطبقة ـ اى تفضل وامسك بقيادة الذاكرين . فيقول هذا فى توقير اكثر . لا والله مايصح ! تفضل إنت !. وعاد « عز الرجال خلاف » من الداخل وذهب للاتيان بطلب آخر للشيخ ثم عـــاد فوجدهم لا يزالون يتعاونون والذاكرون واقفون ينتظرون . فماكان منه الا ان ترك مافى يده واخترق صف الواقفين بكل بساطة فصـــار يتوسط الفراغ بين الصفين المتقابلين، ونقر بكف يمناه على كف يسراه فى ايقاع رزين هادىء ومتزن ، صالحا فى تنغيم رصين : « الل .. ا .. ا .. ه » ، فاذا بالصفين ينحنى رجالهما فى الحـــال الى الامام ثم يعتدلون صائحين بنفس النغم الرصين : « الل .. أ .. ه ». ثم انه اخذ يكرر الانحناءة والتصفيقة والترديد وهم يكررون خلفه ، كل مرة يعلو فيها النغم شيئا فشيئا وتضاف الى الاجساد حيـــوية اكثر . شيئا فشيئا انخرط الذاكرون فى التطوح باقصى سرعة تكاد اجسادهم تذوب فى الهواء ، الوجوه المتطايرة تستقبل موجة الهواء بصيحة : « الله حى » ، وتستدير بسرعة الموجة مودعة اياها بصيحة: « الله حى » . والمنشد من ورائهم صوته يشبه الوقود المشتعل يسرى فى الاجساد نقيا صافيا يحيلها الى لهب مشبوب الاوار ..

خرج الشيخ بنفسه لما وصله الخبر ، وقف على عتبة الخـــلوة العالية ينظر متبسما فى رضاء سعيد ، وكان واضحا أن هذه « الطبقة» لا تريد ان تنتهى رغم مرور نصف ساعة ، فناس كثيرون اخذتهـــم الجلالة ، وفقدوا السيطرة على اجسادهم . وقد لاحظ « عز الرجـــال خلاف » ان الهزال قد بدأ يدب فى الصفين فصاح الصيحة المعهودة : « سبحان من لايتغير » ولكن بنغمة تحمل معنى الختام ، تبدأ من علو ثم تاخذ فى الهبوط المتدرج مع هزات الاجساد عنـــد التـــوقف التدريجى ، كأنما النغم يتلقى الاجساد على كفيه ويهبط بهـــا حتى لا تصطدم بالارض وتتكسر ..

توقف الذاكرون الا من اخذتهم الجلالة بدوا بين الصفين المتوقفين كبقايا مراوح تلف وحدها لفاتها الاخيرة . حينئذ ابتسم « عز الرجال

خلاف » وخرج من بين الصفين متجها نحو الخلوة مارا بالمشايخ الذين « لهف » منهم قيادة « الطبقة » عنوة واستقدارا ، وهى « عملة » لا يفعلها « الا الواثقون من انفسهم ، التفت لهم قائلا بكل بساطة :

ـ « واحد منكم يقوم بتهدئة هؤلاء وتلقيهم ! » ..

واشار نحو من اخذتهم الجلالة ..

شيعوه ضاحكين متسامحين :

ـ « معلهش ياعز الرجال .. كسبت ثوابا على قفانا !! » ..

فحياهم مبتسما بوضع يده على صدره عدة مرات ثم أتجه الى الشيخ فعانقه وقبله وتخطى معه الخلوة تحت أبطه .

البحزة !

لو اراد « عز الرجال خلاف » ان يبيت كل ليلة فى مضيفة ، وان ياكل فى كل طقة ضانا وظفرا لتحقق له ماأراد . الا أنه ـ تقول جدتى « معزوزه » ـ لابد له فى النهاية من حضن امراة ، فليس يلم ضلوع الرجل ويجمع شتاته سوى حضن امراة حتى ولو كانت هذه المرأة هى « ست الحسن » ، تقول ذلك وفى فمها الاهتم بسمة خفيفة ظلماء ، ثم تضيف بجراة لا يسمح بها لغيرها ، ان « ست الحسن » نتانة ولاكل النتى ، وان ثوبها الشيت الازلى هذا كخفير رقيق قوى الشكيمة يحرس جوهرا مكنونا مصونا :

ـ « دى كانت زى القمر ! غير ش بس الجدرى هو اللى بوظ وشها من صغرها !! ..

يقول أبى حين يسمع هذا الكلام وهو جالس على الطرف البعيد من مصطبة مقابلة لصف الدار فى الشارع :

ـ « ياستى بلاش الواحد يبص فى وشها ! » ..

من خلفه مباشرة تجلس امى بارشة فى عتبة الدار ترى من بالخارج ولا يراها . تندفع ضاحكة ضحكا عميقا بلا صوت حتى لتهتز هزا وينزرد وجهها كان أبى قال نكتة بارعة ..

هى نكتة بالفعل ، فليس يوجد على وجه الارض ـ اى بلدتنا ـ من يدنىء نفسه ويغازل « ست الحسن » او يراودها عن نفسها ، كما يقول ابى بعد ذلك مباشرة ، والا كان مختلا او مهفوفا . ولا يمكن ان يحرى وجهها طفل صغير لاول مرة الا ويصرخ لائذا بصدر أمه. اما نحن ابناء الحارة فقد كنا نحبها حبا شديداً ، ولم نكن نتصور

حارتنا بدون « ست الحسن » ، ولم تكن نخاف منها قط ، بل لم يدر بخلدنا انها يمكن ان تخيف . كنا اذا تاخرنا عن الرجوع الى دورنا بعد العشاء فاهلنا يسالون عنا مباشرة فى دار « ست الحسن » قبل ان يسالوا فى اى مكان آخر ، اذ انها بارعة فى حكى الحواديت عن الشاطر حسن وست الحسن والجمال ـ سميتها ـ وعن امنا الفولة ـ ولا ندرى لماذا سميت بامنا ـ وعن العنزة التى تركت اولادها فهاجمتهم ذئبة خبيثة تنكرت فى صوت امهم ونادتهم باسمهم ان يفتحوا الباب ، لكن الولاد بفطنهم كشفوا « الفولة » ونجوا من الذئبة حتى وافتهم امهم ! . .

كم لها من حواديت ساحرة وقف لها شعر رءوسنا . وكم لها من لحظات ضاحكة لا ننساها . طالما اخذنا الضحك فى دارها بلا سبب واضح ، اثناء تقليدها للناس ، للشيخ « عبد المقصود ابو غلاب » يتكلم باحترام ووقار شديدين يلوم النسوان اللائى يطلعن وراء الميت باللطم والصراخ يقرعهن بكلام لا يفهمنه فكأنه لم يفعل شيئا !! تقلد مشية الشيخ « فرحات الاعمى » المنادى ، ونداءاته المتعددة . تقلد الشيخ « جمعه » اذ هو يتوضأ على الميضأة فيما هى مقبلة خلفه تختلس ملء بلاص من ماء الحنفيات ويكون لحظتها متقرفصا رافعا ثيابه عن مؤخرته الكبيرة التى كثيرا ما اخطأت هى وتصورتها بلاص الماء منكفئا ، لولا ان يد الشيخ « جمعه» تبطبط من تحت واليد الاخرى تقذف لها حفنات الماءمن الطاجن تحت الحنفية وهو يقول : ثلاثة .. اربعة او يدب مواصلا : خمسة .. ستة ! كل ذلك فى مؤخرتك ايها الرجل الذى لو ضبطها تسرق ماءالوضوء لجرسها؟! . .

اذ ترانا منفجرين فى الضحك تنفجر هى الاخرى ضاحكة فيتلعبك وجهها يصير كالكرة التى نلعب بها لعبة الحكشة . .

ابى كان يسميها « البحزة » ـ بباء مكسورة وحاء ساكنة وزال مفتوحة ـ ولا نعرف نحن ما معنى « البحزة » لكننا نردده دائما فى استظراف وابتهاج ظنا منا انه لابد حيوان خرافى ظريف له شكل كوجه « ست الحسن » . لم تكن هى تزعل من هذا الاسم قط ، بل كانت تبتسم فى حياء تقول مشوحة بيدها فى ود : « حاكم أنت فابق باخال جعفر » . انما لو سمعت احدا غير ابى يناديها به فيالو قعته السوداء . ف « ست الحسن » توقر ابى وتخشى بأسه ، ربما لانه افندى ، ربما لانه من اعيان الحارة وكبار قومها الذين باسمهم سميت الحارة ، وربما لانه ـ على حد قولها ـ يحمل كتاب الله

على صدره . نفس التوقير كانت تمنحه لبعض رجال آخرين مثل الشيخ « ابو غلاب » والمأذون وشيخ البلد .. وفيما عدا ذلك فالجميع عندها سواء ، ترد عليهم الطاق عشرا . اما لو شتمها احد من امثال ابى فانها لاتنى تردد خلف شتائمه : « الله يسامحك ! الله يسامحك ! طب وماله ! انت برضه زى ابويا ! » .

خطا عزرائيل !!

خرجت الى الشارع ملهوفا اكاد اندم على مايكون قد فاتنى من شيء حدث فى غيبتى فى الدار . لمحت « سعد المجلى » متقرفصا فى آخر الصف القريب . فرأيتنى أتقدم منه بنية أن أعزيه . ولو كان احدا غيره ما جرؤت على هذا الفعل . الملعون لم يخف لاستقبالى ! بل اخذ يحول وجهه عنى كلما اقتربت منه . عرفت انه يتلاشانى خوف ان يطردنا الرجال معا باعتبارها قد معيلت — حاذيت « سعد المجلى » ، قلت له هامسا : « البقية فى حياتك ياسعد ! شد حيلك ! » ، واحسست ان صوتى كان مرتعشا يشرق بالدمع ، فأدركت انني اقول هذه الكلمة لاول مرة فى حياتى ! هذه اول مرة اقول فيها كلمة مما يقوله الرجال . لكن الولد الملعون خفض بصره وغمغم بشيء لم أتبينه ، تذكرت بكاء أمى ليلةامس فبكيت ، ثم مسحت دموعى وفررت من جواره هاربا وقد خيل الى ان « سعد المجلى » ليس حزينا على أمه كما ينبغى والا فما باله لا يقوم الان ويملأ الدنيا بكاء وجعيرا او يفعل اى شيء ؟! الم يكن من الواجب ان ينهض لاستقبال المعزين ؟! هاهم القادمون الجدد لايوجهون له اى كلام خصوصى فلابد انه فى نظرهم لا يزال ولدا صغيرا رغم ذقنه التى بدات تنبت ..

مضيت نحو الشارع العمومى ، فاذا بى أرى شبحا مفرود الذراعين كخيال المآتة ؟ تدفعه ريح عاتية ، تكاد تتصاعد من اطرافه نار خفية مشتعلة ، ترتفع الذراعان نحو السماء وصوت صراخ بينهما يتصاعد فى احتجاج وجأر واستغاثة : « ياسا .. أ .. ا .. بعى » ، ينكفيء الشبح على الارض ينهض عاويا ناديا : « ياجا .. ا .. .. ملى » — اندفعنا جميعا نحو الشبح وقد عقدت المفاجأة لساننا لقد كان الشبح الصارخ هو « ست الحسن » بشحمها ولحمها ! وكانت تجأر بقوة شابة فى العشرين ! تتجه نحو حارة العكايشه ، عرفنا انها ذاهبة لابد الى دار حماتها « جل الخالق » التى تسكن فى قاعة صغيرة بها ، وعرفنا كذلك انها قادمة من مكان بعيد وأنها

لابد قد اطلقت النذير هكذا عند كل دار من دور الذين لهـا بهم صلة اى صلة ، اذ تقف امام كل دار لتطلق صيحتين أو ثلاثة حتى إذا تأكدت من ان احدا من اهل الدار لمحها وتعرف عليها زحفت تجرى كلسان اللهب تخترق جدار الريح ..

نظرنا فى وجوه بعضنا البعض بدهشة عظيمة ! اذ أضاء الخبر فى عيوننا : « عز الرجال خلاف » هو الذى مات اليوم اذن لا زوجتـه « ست الحسن » ؟! بدا ذلك شيئا طريفا ومحيرا !! صـدمنا ، لكننا مع ذلك هتفنا صاخبين بين الفرح والزعل : « اما حكاية » .. وبدا علينا كأننا غير راضين عن هذا الخبر غير مرحبين به ! فقد كنا واثقين ان الذى مات هو « ست الحسن » ، التى كانت تموت بالفعل منذ شهور طويلة اعلن خلالها موتها اكثر من مرة ! .. فكيف اذن نهضت من فراش الموت ومن اين واتتها كل هذه القوة لتـؤدى واجبها هكذا على اكمل نحو حتى ليعلم بخبر موت زوجها كل مخلوق فى البلدة ؟! ..

بدا كأن الله قد غير رأيه فى اللحظـة الاخيرة ! أو لعل سـيدى عبد الرحمن عزرائيل قد أخطأ فى التعـــرف على الوجـــه الذى يطلبه !! ..

فى دقائق تضاعف الجمع وبدا كأن الميت شخصية كبيرة من علية القوم . فى العادة يستطيع المرء تمييز أهل الميت أو أقــاربه بين المتجمعين ، اما اليوم فان كل واحد هنا يبدو كأنه من أهل « عز الرجال خلاف » ومن اقاربه المخلصين . كل واحد يبدى استعداده لفعل اى شىء ، عشرة اكفان جىء بها يحملها ناس من شرقى البلد وغربيها . وعندما يفاجأ حامل الكفن الجديد بأن قد تم تكفين الميت وانتهى الامر بعون الله يقول فى أريحية وهو يتخلص من القماش : « آهو زيادة الخير خيرين ! » . ان هى الا دقائق اخرى حتى وصل من عـزبة الشرانبة كفن فخيم من طرف الشيخ الشرنوبى تحفه الركــائب العديدة بوفد كبير جدا من رجال الطريقة الكبار يتقدمه « عبد السلام الكويس » و « محمود الصالحى » و « جابر عسر » و « سـليمان العبه » و « خليل البسيقى » ، تمهيدا لقدوم الشيخ نفسه بعـد قليل ليمشى فى جنازة خادمه الوفى الذى تساوى معه فى القـدر بعلو المجاهدة ، وكان ركبهم عند دخوله البلدة يبدو كمؤخرة جيش غزا البلدة منذ وقت قليل ..

تلقاه القوم بكل ترحاب . احتراما لكفن الشيخ لم يعترض احـد

بكلمة ، بل ان الشيخ « مرسى » المغسل هز رأسه فى ترحاب قائلا : « وماله ! رزقه ياخده معاه !» ، ثم تناول الكفن وفرده قصه وصله ببعضه فى لمح البصر بطريقة سحرية ثم لف به جثة الميت قائلا فى غبطة وحبور : « دهده ! دهدهياعز الرجال دانت هتارى انك واعر ولا حدش يعرف » . فقال « عبدالسلام الكويس » :

ـ « عز الرجال ؟! ليتنا جميعا مقامه ! »

رد « محمود الصالحى » :

ـ « اما سمعت الشيخ بالامس ؟! »

هتف « خليل البسيقى » الذى يبدو في الثلاثين من عمره سمح الوجه مطلق اللحية فى كثير من عياقة :

ـ « نعم .. نعم .. سمعتم ماقاله الشيخ ليلة امس ! »

قال « عبد السلام الكويس » :

ـ « فيما نحن جلوس بحضرة الشيخ .. سرح سرحة طويلة عاد بعدها مرتعدا : الله حى !. اخذتنا الرعدة . قلنا : خيرا ياعم ؟. دمعت عيناه ! دميت قلوبنا ! صرخنا : خيرا ياعم !. قال بهمس خفيض : يظهر والله اعلم أن عز الرجال خلاف قد مات ، أو سيموت؛ لابد ان احدكم يذهب غدا ليراه . فى الحق صار الالم يتقلب فى بطوننا فعز الرجال خلاف هو الخادم الخصوصى للشيخ كما تعلمون ، معزته من معزة الشيخ وهو متصل بالشيخ اتصال الشيخ بالذات العلية !! ويستطيع الوصول الى الشيخ فى اية لحظة يشاء من على اى بعد يشاء !! ولطالما ناداه الشيخ عند الحنين لخدمته العاشقه فيلبى ! مرات عديدة يغيب عز الرجال خلاف عن حضرة الشيخ فاذا الشيخ يبتسم فجأة ويقول على غير انتظار : فينك ياعز الرجال غبت عنى ؟! لحظتها ـ فى الغالب دائما ـ يكون عز الرجال فىالطريق الى حضرة شيخه ! قد يمر يوم وقد تمر ساعات وقد نراه داخلا فى الحال فنهتاج بالفرح والغبطة نصيح الله أكبر الله اكبر ليتنا افتكرنا الجنة !.. فيرد الشيخ مبتسما : عز الرجال خلاف هو الجنة !. نقول من ذهولنا : كيف ياعم ؟!. يقول الشيخ بكل هدوء : حين نرغب فى شخص بعينه يمنحك الراحة فتجده لحظة التمنى فهذه هى الجنة بعينها » ..

كفكف « عبد السلام » دمعا جرى من مقلتيه ، فتبعته كافة المقل وارتفعت الايدى بالمناديل فوق الاعين ، وبدا ان « عبد السلام الكويس » قد صار عاجزا عن الكلام لفرط البكاء الصامت . وكان

« سليمان العبه » القصير القامة الذى يبدو كأنه ـ وحبتى عينيه الرماديتين ـ منحوت من الحجر الصوان ، قد بكى وحده حتى تعب ، فحاول ان يظهر اكثر تماسكا من غيره ، فاعتدل وقال :

ـ « عز علىنا والله ماقاله الشيخ بالامس .. لقد ادركنا لحظتهـا ان عز الرجال خلاف قد مات بالفعل لان رؤية الشيخ لا تكذب ! انه يكون معنا وليس معنا فى نفس الوقت ! ربما اسبل جفنيه دهـرا طويلا يمضى كلمح البصر يرى فيها مالا عين ترى ولا اذن تسمع !. من فزعنا تجرأنا وكدنا نسأل الشيخ عما رآه فى خلوته بالضبط لولا انه رفع ستار العينين عن نظرة تأنيب حانية وقال ليمنعنا من اى سؤال اخر : لا تسألونى كيف ؟ فكل ماعندى اننى احسست الآن بأن حبل الاتصال بينى وبينه قد انقطع اذ رايتنى بنفسى ذاهبا الى داره على قدمى اطرق بابه الذى كان مواربا وكان هو ممددا فى فناء الدار يتعالى شخيره من بئر نوم عميق وزوجة تصحبه فى صخب وتوتر وخجل مربك تقول له فى عتاب حاد قم يارجل ولاق شيخك على عتبة دارك قم ياموكوس لاتكسفنا مع الشيخ لكنه لا يبـالى فظلت به حتى أقامته قاعدا يرمش بعينيه فرآنى ورايته عينا لعين ورمشا لرمش وانسانا لانسان فلما ادركته فى عينيه بسم فى اعيـاء شديد ولوح لى بيده ان وداعا ثم استوى نائما كما كان !.. هـذا ماقاله الشيخ لنا فتصوروا يارجال الى اى حد كانت الصلة بين هذين الرجلين والى أى حد يرى شيخنا !! » ..

دمدم الحضور بعبارات مرعوشة متهدجة :

ـ « لا اله الا الله ! » ..

ـ « وكشفنا عنك فبصرك اليوم حديد ! »..

وضحك بعض الخبثاء فى السر على هذه الغلطة الشنيعة التى وقع فيها ذلك المتفاصح بالقرآن الكريم وهو لايحفظه !

قال « جابر عسر » الطويل الذى يبدو فى هيافة بعض النخيل فيما هو يلف سيجارة يبللها بشفتيه :

ـ « نحن بدورنا حين استمعنا لرؤية الشيخ قمنـا فجهـزنا انفسنا للمجىء الى هنا .. وقد لحق بنا الخبر ونحـن على أهبة الركوب ! »

قالت بعض اصوات من اهل البلدة :

ـ « من الذى اتاكم بالخبر ياترى فى هـذا الوقت المبكر ؟! » ..

قال « محمود الصالحي » صانع البرادع ملوحا بيده البيضـاء

البضة الممسكة بالمسبحة اليسر ، مشيرا بها نحو الدار التى خلف ظهورهم مباشرة :

ـ « ست الحسن ! زوجه ست الحسن هى التى اتتنا بالخبر!» .

ارتفعت صيحة متماوجة امتدت على طول الشارع بين صفى الجالسين متربعين على الارض :

ـ « يا .. ه .. ه .. ه .. ست الحسن ؟ الحقت توصل لكم ؟! »

قال خادمهم « برهام » الضخم الجثة ذو الوجه الشبيه بالطاجن الفخارى الكبير ، واسنانه الصفراء البارزة تبدو كنقوش فى صفحة وجهه المحروق ، وكان كالمتفاخر :

ـ « ست الحسن بدات الصوات من عندنا !.. كان شبحها يقترب نحونا منذ حودت من طريق الغيطان الى ساحة العزبة فما ان رأيناها حتى عرفناها من على بعد ! وما ان عرفناها حتى انفجرنا جميعا فى البكاء وخرجنا لاستقبالها ! لكنها توقفت على مقربة من باب المندرة ورفعت ذراعيها وسددت الى السماء خناجر صواتها التى راحت تصطدم بسقف السماء وترتد منغرزة فى قلوبنا !.. لم نستطع بل لم نجرؤ على ايقافها عن الصوات حتى لايتقلى الشيخ فى نيرانه ! .. على أنها استدارت عائدة بتبعثر خلفها الصوات فى جميع انحاء العزبة .. ولولا اننا تأخرنا قليلا لنستكمل وفد المعزين بدلا من مندوبين للسؤال فقط ، لولا ذلك للحقنا بست الحسن فى الطريق !. طب مارايكم أن صواتها ظل قائما فى العزبة بعد انصرافها ؟! لقد غادرنا العزبة وهو يشيعنا من جميع انحائها ولابد انه الآن قد كبر وصار مناحة ! » ..

كفكف هو الاخر دمعه وسط موجة من اصوات هادرة بلا اله الا الله . واحسست ان جدران البيوت وطبقات الهواء بل والسماء قد اقشعرت ابدانها . وقبل ذلك ببرهة طويلة كنت المح على اطراف الصفين المتربعين بعضا من الشبان الهازلين الضاحكين على الدوام يتشبثون باحترام مصطنع وقد بدأ على وجوههم سخرية معناها ان حرارة الجناز اقوى من مستوى الميت ! .

عز الرجال خلاف

.. فى السنوات الاخيرة كانت عين « عز الرجال خلاف » قد

بدأت تقطع حبال الاتصال بعيون الآخرين ان فى الطريق أو فى الحضره او فى المسجد او فى اى مكان . كان يبدو كأن عينه السليمة قد استقلت بنفسها واستكفت ، وكان من الصعب على من يراه او يجالسه ان يلتقط عينه . على غير العادة صار يكثر من المشي فى الطرقات بغير هدف واضح لنا ، فأينما ذهبت فقد تراه ولابد ان تقول له او لنفسك: « انا مش لسه سايبك فى المكان الفلانى ؟! » ، لن يعيرك التفاتا . تعود كل انسان فى بلدتنا أن يرى « عز الرجال خلاف » فجأة فى مكان لا يخطر على البال ، فعليه حينئذ ان يعافيه بالعافية ويمضى دون انتظار لرد منه ، لانه فى العادة لن يرد ابدا ، بل لعله لم يستمع اصلا . كذلك تعود كل انسان ان يسمع طرقا على باب داره فى نصف الليل او قرب الفجر فينزعج لاول وهلة خوف مجهول غامض ، ولحظتها يتشبث بالامل قائلا لنفسه : لعله عز الرجال خلاف . وفى معظم الاحيان لابد أن يكون هو بالفعل ! ولابد أن يستقبله صاحب الدار بترحاب شديد ومودة فائقة كأنما قد زاره بالفعل النبى كما يقول اهل بلدتنا دائما عند زيارة عزيز عليهم ، مهما كان الظرف غير مناسب لاستقبال الزوار ، ففى اعتقادهم أن « عز الرجال خلاف » وامثاله انما هم طائفة اهل الله الذين يجب على كل انسان مخلص ان يتقرب منهم ماوسعه ذلك .. فما بالك لو كانوا هم الذين يتقربون اليك ؟! ..

وبما قدم له صاحب الدار أكلا وشايا رغم يقينه ان الرجل لن يأكل ولن يشرب الا انه واجبه المقدر لابد ان يأخذه . قد يتركه صاحب الدار جالسا وحده فى المندرة او الدهليز لوقت يغيب هو فيه داخل الدار أو خارجها يقضى بعض شأنه مع عياله ، وربما عاد فوجده لايزال جالسا فى ركنه سابحا في ملكوت الله مكلما نفسه فى همهمة هنهنة عابسة وحركات ساخرة عابثة يضحك خلالها ضحكا عميقا جدا يهتز منه جسده الفارع الضخم وتختفى عينه تحت هدب مسبل فيبدو جميل الشكل حقا مهيبا حقا كأولاد الباشوات لولا الخرقة التى يتسربل بها والتى لم تنكشف من خلالها عورته قط . وربما عاد اليه صاحب الدار فيجد انه قد فتح الباب وخرج واعاد اغلاقه مثلما كان على نحو تام ، ماضيا فى حال سبيله ، ممسكا بيمناه عصاه التى هى فى الاصل سيخ من حديد البناء السميك لا احد يعرف كيف ثناه من المقبض ودببه من الاسفل وجلخه فجعلها تبدو كعصا من معدن ثمين مجهول ! كذلك لايعرف أحد ماحاجته لمثل

هذه العصا على وجه التحديد . اما كتفه الايسر فقد علقت به مخلاة من صوف الغنم كبيرة فكأن نعجة صغيرة بنية اللون مطبوعة تحت ابطه وفوق صدره منفوخة البطن قليلا ، فيها خنجر معقوف السن رهيب المنظر بقبضة مشغولة بالنقوش الاثرية الفرعونية لابد انه عثر عليه أثناء فحت احدى المقابر ضمن الكثير مما كانوا يعثرون عليه فى مقابر بلدتنا القائمة على تل مرتفع جدا اذ هى فيما يقال أطلال بلدتنا القديمة التى دمرها الفرنسيون يوم هزيمتهم فيها وقتل حصان الجنرال مينو .. !

لم نكن نعرف ماحاجته لهذا الخنجر . لكن فى المخلاة اشياء اخرى اكثر غرابة : قطعة زلط صغيرة ، زناد ، قطعة من حجر طق الليل ، شريط مبروم من القطن كشريط اللمبة اليد شارب من الجاز بضعه مربوطا بالحجر ، علبة دخان معدنية ثمينة يقال انها هدية من أحد اعمامه الكبار فى الطريقة ، مسبحة طويلة من اليسر قوامها تسع وتسعون حبة سوداء لامعة منقوشة ، مسبحة اخرى صغيرة من الكهرمان الاصيل قوامها ثلاث وثلاثون حبة كبيرة مستطيلة يقال أن الحبة منها بالشيء الفلانى ، والعجيب انه كان يستخدم هذه وتلك فى تسبيحاته ولكن بشكل نادر جدا أذ انه فى معظم الاحيان كان يستخدم اصابع يديه فى التسبيح ان لم يكن امامه قطع من الطوب والدبش الصغير يرصها ويعيد رصها ليرصها من جديد وهكذا الى مالا نهاية وفمه لا يكف عن الهمهمة العابسة تتخللها انفراجات مفاجئة يبدو فيها كانه يعبر حافة الجنون !..

ليس لاحد ان يجترىء على مخلاته او يلمسها ، لكنه كثيرا مايندمج وحده فى تفريغها بحثا عن شيء تائه فى قاعها يطلبه ، فاذا من بين محتوياتها تمر وعناب جاف ، ووريقات من المصحف الشريف لعلها آية الكرسى او السبع آيات المنجيات ، ووريقات اخرى لعلها من حزب شيخه الذى اخذ العهد عليه ! وخرز مختلف الوانه واحجامه وانواعه يقال انه حصى من رمال البطحاء والبصرة وصنعاء وحلب والقيروان وخراسان وطليطلة ! ولا احد يعرف كيف آلت اليه هذه الحبيبات الدقيقة الجميلة الملونة ! ايكون قد جمعها بنفسه عبر رحلة قطعها على قدميه فى بلاد الاسلام أم تكون هى التى جاءت اليه من تلقاء نفسها ؟! ..

المؤكد لنا انه مغرم بالفرجة عليها اذ يختلى بنفسه فى ركن قصى تحت شمس الطريق ويستخرجها ويظل يتأملها لفترات طويلة

يعتدل خلالها فى جلسته عشرات المرات متربعا يميل الى الامــام تارة والى الخلف تارة اخرى وفى اتجاه شعاع الشمس تارات كثيرة ، حبة حبة يتاملها رافعا حاجبيه الكثيفين المهيبين ممعنا النظــر فى اهتمام وتوتر وانفعال مضغوم قد ينتهى بضحكة طويلة تنضح بالاسف والبهجة والمعيلة ، وقد يصعد الى ذروة ترنحه خلالها هــزة البكاء العنيف الحاد فى عمق ضحكه وعمق صمته وعمق عزلته وعمق سره الغامض الجميل !!

القبــة

كل الناس خلال السنوات الاخيرة لم تكن تفهمه ولم يكن يعنى بها .. وكان مع ذلك ــ وياللعجب ــ مستمرا فى خدمة الشيخ يحج اليه فى اوقات كثيرة جدا ، وزوار الحضرة من البلدة يرونه دائمـا هناك قبل وصولهم ويرونه فى خلوة الشيخ يقضى له الطلبات كالعادة: هات كذا افعل كذا ! رح ! تعال ! فيفعل كل ذلك فيما هو مستمر فى عزلته مع البسبسة والتمتمة التى تبدو من فرط اســتمرارها مجرد هذيان ! . بعضهم يقسم انه رآه والشيخ وحدهما لا ثالث لهما الا الله يتحدث الشيخ و « عز الرجال » يستمع بشغف ويهــز راسه فى اقتناع منبهر ولحيته المدببة المسحوبة ممتدة بتخوم ذقنه على حائط الخلوة فى ظلال الكلوب تتلاصق بتخوم لحية شـيخه تكاد تفوقها جمالا ومهابة وسحرا لولا مايحيطها من خجل التواضع الجم ــ البعض الآخر اقسم انه رأى بعينيه الشيخ يستمع بنفس الشغف والانبهار ولحيته على الحائط تتهادى فى تواضع تحت لحية « عز الرجال » الذى يتكلم ويلوح بذراعيه ويديه ورأسه وكتفيــه ولكن فى رصانة وثقة ! ولكن لا احد يعرف ماذا يقول أو يفهــم مايقول ! ..

الا ان الشيخ الشرنوبى يؤكد لمريديه انه ليس ثمة مشــكلة على الاطلاق وانه قد بات يفهم « عز الرجال » اكثر من ذى قبل بل هــو الآن فى احسن حالاته واوضحها ، انما الصعوبة والمشكلة فيهــم هم ، فى عجزهم عن فهمه وتقاعسهم عن تفهمه ، اذ هو قد بات يتكلم لغة غير لغتهم ويسلك غير سلوكهم فيملأ لحظات زمنه بذكر الله هنيهة هنيهة ! انه يبنى زمنه بنيــانا شديد التماسك راسخ الاركــان متلاحم البرهات بكثافة من ذكر صادق مكتنز بالحسنات وهــ سلمه الصاعد فى قوة نحو الذات العلية !!..

التميمة

شيء آخر فوق شخصيته المحبوبة الاليفة لكل الناس كان يزيدهم فيه حبا وتقديرا وحنوا .. ذلك انه مسالم الى أقصى الحدود رغم اطواره الغريبة هذه المستجدة عليه في أواخر عمره بعد طول تعمق وبحبحة ومرح . لم يكن يؤذي احدا على الاطلاق ، بل كان يمسك بالنملة الزاحفة على جسده ، وفى رفق يضعها على راحة يده ويتفرج عليها رافعا حاجبيه الكثيفين فيما لا نعرف ان كان غضبا أم انبساطا ، يوجه اليها طائفة من الفاظه المضغومة الغامضة ينهيها دائما بنفخة كنفخ دخان السيجارة ، يبحث حواليه عن عود رفيع من القش او طرف ورقة يضعه على راحة يده صانعا للنملة قاربا تتسلقه ليضعه برفق الى جواره ويروح يلف سيجارة قد يستغرق لفها ساعة من الزمن ! ..

عموم الناس فى بلدتنا كان بين مصدق ومكذب له ، الكثيرون منهم يثقون فى صدق مجاهداته وفى جدواها ويشيعون عنه بعض الكرامات المستقاه من زملائه مريدى الشيخ الشرنوبى ، والقليلون يلوحون من طرف خفي بأنه قد دخل فى طور الدروشة فانجذب ـ أى جن ذلك الجنون الهادىء . على أن مصدقيه يدافعون عنه قائلين انه فعلا قد انجذب ولكن انجذب لمن ؟ لله بالطبع ! للواحد القهار . الا ان هؤلاء واولئك والجميع يتفقون على أنه رجل طيب القلب حقا ونقى السريرة حقا وانه بمشيه فى الهواء الطلق هكذا محررا من كل قيد انما لتنفيذ مشيئة الله فى شيء يريده سبحانه . كأن يعطلك عن جريمة تزمع القيام بها مانحا اياك فرصة مراجعة الشيطان الشاطر والانفلات منه ! او يحول بينك وبين قدر غشوم ! او يقودك الى قدر مخنوم ! او يبشرك بيوم معلوم او ينذرك بغضب محموم ! او يوبخك ـ دونما سبب معلوم ـ بكلام مسموم !! ..

الشرانبه

شخصيا شاهدت بعينى أحدى الكرامات المؤكدة ومن يومها صرت ارهبه واجرى اذا قابلنى فى زقاق ضيق وانا عائد من المدرسة وحدى ، اذ هو يستدير نحوى ناظرا فى الفراغ بضحك عميق واحيانا بشتم ولعن وسخط ! . ذلك أن العين التى كنت اراها وانا طفل اتردد على

دار « ست الحسن »واداعبه فيداعبنى واشاكسه فيشاكسنى وقد اسيح فيه : يا اعور العين ، فيضحك صائحا : اخص عليك ، ويتصنع انه يهم بضربى او البحث عن عصا يلوشنى بها لكن عينه السليمة سرعان ماكانت تحسم الامر اذ تقع عينى عليها خلسة فأرى فيها الضحك على وارانى ظاهرا فيها حتى وهو يتصنع الهجوم على والايقاع بى حتى وهو يضربنى بتصنع انه يضربنى !.. لكننى لم اعد ارى هده العين قط كأنما قد استلبها سالب مجهول ! ولست أرى الآن سوى عين اخرى لم تعد تعرفنى على الاطلاق ولا هى تريد ان تعرفنى ! .. فكنت احس بالذعر لمرآه ..

كان ذلك قبل أن تعتريه هذه الحالة ، وكنت أيامها فى السنة الاولى بالتعليم الالزامى ، حيث صار اولاد اعمامى الرجال والشبان يحلو لهم اصطحابى — لابسا السترة والطربوش — الى اماكن كثيرة فيها أفراح أو معازى أو خطبة عروس أو مجلس صلح بين عائلتين !!.

ثلاثة من ابناء عمومتى اتباع فى الطريقة الشرنوبية ذوى حظوة ومكانة استثنائية اكراما لخاطر عمى « على الكويس » الكبير الذى كان من اخلص خلصاء الشيخ الشرنوبى الكبير والد شيخنا الحالى بل كان نائبه الوحيد فى مهام الامور والمشاوير الفعالة ، وهو مدفون بجواره فى ضريح صغير محندق بقبة محندقة جميلة تشبه تدويرة الرأس فى عائلتنا بعد أن يدركها الصلع فلا يبقى من شعرها سوى بعض شعرات جافة صلبة تقف نافرة فوق منتصف فروة الرأس لها ظل واضح كأنها السيخ الحديدى المتصاعد من مركز قبة الضريح ..

لابد لواحد على الاقل من ثلاثتهم أن يكون موجودا كل يوم فى حضرة الشيخ ان لم يكن ثلاثتهم فى معظم الاحيان فضلا عن عمى « عبد السلام الكويس » الذى صاروا يطلقون عليه لقب الصغير تمييزا له عن عمى الكبير « على » . بل كثيرا مايكون ابى أيضا هناك رغم انه مدرس كشكول كما يسمى نفسه وليس له فى مسائل المشيخة . اذ يحلو له ولبعض صحابه فى ليلة عيد او موسم او احتفال بميلاد الشيخ أو عودته من سفر ، أن يفاجئوا الشيخ بزيارة ليلية غير متوقعة ، فاذا ماخرجت ركائبنا فانها تلتقى فى الطريق برهط آخر من ركائب العائلة مقبلة من عزبة الشرانبة ، فتتوقف الركائب من تلقاء نفسها بحكم تعرفها هى الاخرى على بعضها البعض وتراها تحمحم نحو بعضها وتتشمم بعضها تطلق نهيق الترحيب والتحية فى نزق

تكير الصوت طريفة مع ذلك ، تتوقف الركائب ريثما يتم تبادل الاخبار والاستفهامات والسؤالات ثم لا تلبث الركائب حتى تلوى أعناقها فى لكاعة الاصدقاء والعلوق يودعون بعضهم بعضا فيمطون الوداع فى ثرثرة فارغة على اثرها يتعاكس صوتان من النهيق كل منهما فى اتجاه مضاد ..

القادمون من عزبة الشرانبة لا يقولون أنهم قادمون من عزبة كذا ، ولا حتى من العزبة ، انما يقولون : نحن قادمون من عند الشيخ ، وكذلك الذاهبون . فان تقول انك ذاهب الى الشيخ معناه بالضرورة انك ذاهب الى العزبة المسماة باسم عائلته وهم صفوة من الطيبين الاخيار الشرفاء ، ذلك ان الشيخ أينما ذهب ينقل العزبة معه بكل حذافيرها فيما عدا الحريم الا حريمه هو . ثم ان العزبة ليست عزبة انما هى بلدة صغيرة حافلة بالسكان والاراضى الزراعية والمحاصيل الوفيرة الموزعة سلفا قبل مثولها فى الاجران ! على اصحاب نصيبها من عباد الله مجهولين ومعلومين . قطعان الماشية والثيران والخرفان المهيأة للذبح دائما ، تسافر لحما شهيا الى اصحاب نصيبها المجهولين فى موالد كافة الاقطاب فى أنحاء عواصم البلاد . هذه القطعان لا يعرف الشيخ عنها شيئا ولا من أين جاءت ولا من هم أهل الله الذين دفعوا بها الى حظيرة الدار الكبيرة ، لكنه يثق انها دائما موجودة ودائما وفيرة وبغير انقطاع . والكل يأكل من اللحم مالتشتهيه نفسه ، ويد النقيب ــ موزع الانصبة ــ فى النار ولو عدلت كما يتندرون بالمثل دائما ، الا نقيب طريقة الشيخ « عبد السلام الكويس » قصير القامة فان يده فى الجنة باذن الله ، وكل جسده المتلىء ونظرته الحية الخجلى وفمه الشبعان الذى ينطق كلمة ياعم لكل من يستحقها فعلا ، انه علم على الذمة فى بلدتنا ، ثابت على مبدأ اختيار الشيخ له ورضاء الجميع عنه فى مهمة تفريق الانصبة حيث يمشى خلفه « عز الرجال خلاف » او غيره يحمل سفطا من الخوص كبير مملوء بقطع اللحم الساخنة التى لاتزال حية ترتعش بالحيوية رغم خروجها لتوها من اتون الغليان ، يتوقف النقيب عند كل واحد ويكبش من السفط مقدار مااتسعت له يده فى أول كبشة ، فان كانت ثلاث قطع فتمضى الكبشات الباقية على نفس المقدار ، وان اربعا فاربع ، ولا يعتبر مسئولا بعد ذلك عن نصيبك الخفى لانه يكبش من السفط على بعد فلا فرصة للانتقاء او التحيز ، لكنه سوف يأسى لك بالطبع اذا شاء نصيبك الخفى أن تكون القطع صغيرة او

معظمها عظم وشفت ، ولسوف تشعر انت أنه يمكن أن يهديك اصابعه نفسها لتأكلها فتراك تعمل جاهدا على اخفاء نصيبك حتى لايلحظه ، بكون اناجر الفتة ممتدة متلاحمة على الارض بين صفوف المتربعين في وداعة ، العباءة الجوخ مجاورة للخرقة وبقايا أجولة على الاجساد ، الطربوش مجاور للطاقية الدبلان الغلبانة والطاقية الصوف المزركشة واللبدة والعمامة المقلوظة كلهم فى انتظار زحف النقيب نحوهم بالمنابات الشهية يأكلون باسم الله الرحمن الرحيم بنفس مفتوحة ونية صافية وروح ودودة تضاعف أحجام المنابات في نظر متلقيها فيعزم بعضهم على بعض بالاحمر والسمين ويتنازل البعض الاهتم أو الشبعان المتخم في بيته عن منابه لمن يحدس أنه فى احتياج .. والشيخ على صدر المائدة بكفية من الثريد بضع ملاعق ومن اللحم فتفوته مسلوقة .

الشيخ

بعدد شعر راسى حضرت هذه الاكلة وحظيت رغم طفولتى بنصيب الرجال من اللحم ..

وفى تلك الليلة البعيدة كانت عائلتنا برِبطة المعلم حاضرة فى حضرة الشيخ . كنا قد تعشينا وصلينا العشاء جماعة وتكوم الاتباع فى فناء الدار جماعات تتحلق ركيات النار فوقها براريض الشاى تغلى تخرط ثلاثة أدوار تهضم الطعام حتى تخف أجسادهم وتصبح صالحة للاندماج في الذكر الذى سيرتفع اواره بعد قليل يدندشه صوت المنشد ومن خلفه الدفوف والصاجات والناى والارغول والرباب والدربكة والسلامية وفريق من الكورس الرجالى يسند معه بترديد المذاهب واللزمات ..

اما ابي واولاد عمومتى البالغين مرتبة عالية فى الطريقة ، وانا ، فلقدر عائلتنا وارتفاع مستوى الطيبة والاخلاق الحميدة بين ابنائها لعدة اجيال ماضية فضلا عن الحالية فقد التحقنا بمجلس الشيخ في خلوته نفسها وهى برحة مطلة على ساحة الفناء من بعيد بحيث يتسنى للشيخ رؤية حلقة الذكر من مريده والاتصال الروحى بالذاكرين لتقوية صدقهم واشعال روح الحماس فيهم ، فان يذكر الذاكرون وهم يحسون بعينى الشيخ متاخمة لصفوفهم غير ان يذكروا بمعزل عنه ! والفرق بين منظر ذكرهم وانبعاث روح الوجد فيهم تحت عين الشيخ ، وبين ذلك فى غيبة فروق شديدة لايقدر على وصفها الا ابى فى ساعة تجل !..

تواترت طبقات الذكر طبقة وراء طبقة ، أمسكها فى كل مرة واحد من كبار المريدين ، وأرسل المنشد من الانغام معظم التخين الذى يقولون دائما انه فى القعر ، وانهدت فحول هائجة ، ودبت الحيوية فى نغال كسولة لحقها الوجد على غير انتظار فصرخت من فرطه أثناء التطوح بالذكر هدرت كالملتاثة بالاستغفار بطلب الرحمة بمحـــاولة الهـروب من المعـاصى الماضية بمحاولة التوبة بالذوبان فى غفـران الرحمن ..

طرب الشيخ وطربنا جميعا وتطوحنا فى جلستنا واخذت بعضنا الجلالة فاذا هو يمعن فى التطوح تركبه نفس الحالة فيما هو جالس لا يزال والشيخ من حين لحين يرسل له بعض كلمات يهدىء بهـــا روعه فاذا هو يستمد من صوتها رهبا لهبا حماسا انخراطا فى الهدار المستغيث الملتاث كأنما تطيبة الشيخ أعطت حالته هذه صكا رسميا وشهادة بان صاحبها قد بات على مستوى التوحيد والتوجيد . اما الشيخ فانه هنالك يبسم فى طيبة شديدة عن سن مفلوجة فيمـا هو يقول : هكذا يثبت اننا جميعا مذنبين واننا والحمد لله قد صرنا نشعر بتانيب الضمير ! فوالله انه لذكر يطهر النفوس حقـا مـن الآثام ! بعدها تستطيع أن تلقى الناس والحياة على ارض جـديدة نظيفة ! اكرمنا الله وأياكم !..

ثم أن هدير الريح قد بدا يخفت شيئا فشيئا ويتضح أن العواصف اطراف جلابيب استخفها جميل الطرب فذابت فى نشوة الهفهفة ، ثم اخذت تختفى عن انظارنا شيئا فشيئا . وقبيل مجىء الفجـر بدأنا نشعر بغطيطهم فى اركان الفناء المبتعدة .. وخلت ســـاحة الفناء امام انظارنا فرأينا الكانون فى آخر ركن بعيد فيها متصـلا بجوف الدار من الخلف بدهليز ضيق محفوف بالتوتر دائما كأنما لتحذيرك من عبوره وانتهاك ستر الدار . كانت الحلة النحاسية الكبيرة التى تتسع لاشلاء ثور كبير بوفرة من المرق متربعة بجوار الـكانون كالصهريج القصير القامة . وكان الطابخ قد ازاح عنها غطاءها الهرمى موسعا فراغا كبيرا جدا بين حافة الحلة وحافة الغطاء ، وكانت بقايا دخان واهن لا تزال تتجمع فى هذا الفراغ متعرجة مبعثرة فى الضوء العليل النعسان من فرط مابذل هو الآخر من جهد جهيـد ، ممـا جعلنا نفطن الى ان الطابخ قد قام بغلى المرق من جديد حتى يظـل اللحم الباقى فيه سليما من العفن، حيث قد أنبأنا النقيب أثنـــاء انهمارنا فى الاكل اننا على كثرتنا لم نأت على نصف الثور وان اكثر

من نصفه ـ غير هوائجه الاخرى ـ لا تزال باعماق الحلة تدخر لنا فطورا وغداء لا مثيل لهما . الطابخ كشف غطاء الحلة وانصرف معطيا الدخان فرصة الخروج كله من الحلة ، ولعله قد سكر راسه بفعل التقلية الحريفة التى يجيد صنعها فاستغرق فى النوم ..

وكنت قد نمت على صدرى وصحوت عدة مرات وانكفأت على بوزى عدة مرات ومع ذلك لم ارضخ لطلبهم ان اتمدد بجوارهم على ركبة الشيخ نفسه لو اريد . وقد كان يحلو لى بالطبع لولا اننى اخشى النوم واتشبث بالصحو ما امكن للفرجة على هذا الشيخ لعلنى اعرف السر الذى يجعل من كل هؤلاء القوم اتباعا له وخداما يرفعونه فوق رءوسهم ! حتى ليؤلف شعرا يقول فيه كلاما شديد الجراة والخطورة فيصدقونه فى مزيد من الطرب وصيحات الاعجاب !.. كان يقول مثلا : « أنا مدحت الشرنوبى وسهمى نافذ .. عيسى وموسى يطلبان مكانى » !! .. ويشرح لك المريدون أن الشيخ يقصد بمعنى البيت انه محظوظ وسعيد الطالع بمجيئه فى عصور سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وان سيدنا عيسى وسيدنا موسى يطلبان حظه هذا .. !!

لحظة انتباهى للحلة بجوار الكانون فى الركن الفضى انتبهت الى وجود « عز الرجال خلاف » امامى مباشرة ، وكان من الواضح انه مستقر فى جلسته هذه معنا منذ ماقبل بداية الليل دون ان انتبه اليه كانت ذقنه اذ ذاك حديثة عهد بالانطلاق على حل شعرها ، كما كانت عينه السليمة فى بداية اكتشافها فضيلة التلكؤ عند الاشياء لفترات طويلة . ولحظتها كانت عينه مسبلة تماما واصابعه العشرة فى حجرة تلامس حبات المسبحة الكهرمان العتيقة التى تطرقع قبلات حباتها ببعضها البعض كلما التقت حبة باخرى ..

ايامها كانت علاقته بى وبكل الناس آخذة فى الانفصام .. فحولت بصرى عنه الى ساحة الفناء ..

فاذا بى ارى ظل شبح ممدود على الارض يزحف مقبلا من اعماق الدهليز الضيق نحو ركن الكانون حيث تتربع الحلة الكبيرة ، سرعان ماظهر صاحبه فاذا به الشيخ « اسماعيل » اصغر ابناء الشيخ وآخر العنقود ، فى مثل عمرى تقريبا ، اصغر منى بسنتين ، فهو معى فى مدرسة البلد فى السنة الاولى وانا فى سنة ثالثه اول . كان يرتدى جلبابا من الزفير المقلم بشرائط من اللون زاهية ، احلى بكثير من جلبابى الذى ارتديه فى دارنا . وكان يبدو انه مستغرق فى النوم لا يزال وهاهو ذا « يتدقلج » فى الارض مترنحا كعنزة مكتنزة اللحم

لطيفة المنظر شقراء على جبينها خصلة شعر منطرحة وحدها فى قطيعة نهائية من بقية الشعر ..

تواترت من أنحاء الفناء أصوات تتلقفه وتناديه فى حنو واغراء . فيما هو مندفع فى هرولة هنا وهناك كالخائف كالحائر كالفاقـد الوعى . اخيرا ركز اتجاهه العشوائى نحو ركن الكانون من جديد فازداد اقتربا من الحلة والفناء كله يصيح فى أعقابه : « خللى باللك ياشيخ سماعين ! رايح فين ياشيخ سماعين ! » . لكن الشيخ « اسماعيل » بدون ان يفتح عينيه او أذنيه كان قد رفع ذيل جلبابه من الامـام كاشفا عن عضوه التناسلى ممسكا به باطراف اصابعه مطلقا لبولته العنان .. فى قلب الحلة تماما ، لدرجة أننا ـ فى مجلسنا البعيد ـ سمعنا صوت خرير الماء فى الماء عاليا ..

حاسب ياشيخ اسماعيل ! حاسب ياشيخ اسماعيل !.. الا ان الشيخ اسماعيل قد فعلها وانتهى الامر قبل أن ينهضوا جميعا للجرى تجاهه ، فالحق انه عمل لم يكن منتظرا من الشيخ الصـغير على الطلاق ، ولم يتعود على قضاء هذه الحاجة الا فى القصرية كطفـلا وفى الكنيف بعد ذلك . وهاهو ذا يعود الى الدهليز الضيق من جديد فيختفى فيه كأن شيئا لم يكن ! ولعله قد استأنف نومه على الفراش ! ..

وقفوا جميعا فى الفناء مبهوتين يتحلقون الحلة يصخبون يصفقون كفا على كف فى اسف وكمد ، الطابخ فى نصف هدومه يكاد يشقها من الخجل ، كل واحد يلقى الذنب على الاخر ، ثم خفتت الاصوات حتى لا تقلق الشيخ من غفوته ، لكنى تابعت التناحر والتلاطم بالاجساد فى انفعال مكبوت مغيظ ، واحسست أن الخناق قد ضاق حـول الطابخ فاخذ يلوح لهم بخروفين يذبحهما فى الحال فى تكتم شـديد ويراهن على اننا سنفطر منهما ، وان هذين الخروفين على حسـابه الخاص بشرط الا يفتحوا الموضوع امـام الشيخ او أمـام اى أحد ..

افتى « عبد السلام الكويس » النقيب أن بولة الطفل طاهرة على اى حال ، وانهم لوغلوا الشوربة ثانية لامكن شربها بدون خطر ! . وافقه « محمود الصالحى » صانع البرادع على هذا الراى واقترح نزح قطع اللحم من الشوربة وغسلها بالماء جيدا ثم تحميرها فى السمن او فى الزيت او فى دهنها !!..

وبدا كأنهم جميعا قد استراحوا لهذا الاقتراح ووافقوا عليـه

منعـا لحدوث شوشرة قد تعكر مزاج الشيخ وتمغص باله من جهة الطعام ..

كل ذلك و « عز الرجال خلاف » مندمج فى ضحك عميق ، وقد اكتشفت لحظتئذ فقط ان ملامحه التى كنت اعرفها قد تغيرت وازدادت غنى وثقلا حتى لاظنه الان فيلسوفا يستعلى على كل البشر الذين هم دونه . راحت ضحكاته تعلو فيما هم منهمكون فى محاولة استقصاء بعض مواعين اضافية ينقلون فيها اللحم ويعالجونه على النحو الذى اتفقوا عليه ، حيث ارتفع صخبهم من جديد بشىء من الجدة والعصبية المرحبة بالتشاؤم ، ثم ان العصبية قد ارتفعت حدتها بين النفبب والطابخ وبعض مؤيديه فتدافعوا بالايدى فى شىء من العنف ، وضرب « عبد السلام الكويس » رجلا باليد على صدغه ، وزغد آخر ، وشوح للطابخ فى تهديد شرس لم أره عليه من قبل ، فى حين نشط آخرون للحيلولة دون تفاقم الامر ، ونشط غيرهم للعمـل ، فجىء ببعض اناجـر الفتـه وتم صـفها بجوار الحلة لتترح قطع اللحم فيها !!

الا ان « عز الرجال خلاف » اقبل نحوهم وهو غارق فى ضحكه العميق يطوح عصاه تارة ويضرب بسنها الارض تارة اخرى . بثقة يحسد عليها ، وجبروت لا يجرؤ عليه الشيخ نفسه ، بسط عصاه فنشرها بينهم يدفع بها هذا ويزغد بها ذاك ليوقفه . أمر لم يكن يتوقعه احد على الاطلاق ، ولذا عقد الذهول السنتهم وسمرهم فى اماكنهم . ثم اذا به يعدل عصاه فوق الارض يتكىء بيده عليها ويغـرق فى ضحك غزير .. والجميع من سخف ماحدث يتبادلون النظـر يستمدون بعضهم بعضا عليه ..

فى اللحظة التى تحفزت فيها بعض الاجساد لنطحه والهجـوم الشرس عليه لتلقينه درسا فى الادب ، رفع هو عصاه مرة اخـرى صارخا بصوت لا ندرى من اين جاء بقـوته تلك ورنينه الزاعـق هذا :

ـ « الله اكبر ! الله اكبر ! » ..

ثم استدار نحو خلوة الشيخ زاعقا بنفس الرنين الصادح :

ـ « عمى ! تعال ! حلفتك بكل الاولياء ان تحضرنا الان ! حصل الان شىء لابد ان تعاينه بنفسك ياعم ! .. وقلبى يحدثنى انها البشارة !! » ..

وبالفعل ظهر الشيخ مقبلا من اعماق الخلوة كالنسيم الخجل ووراءه صحبته ــ فلما صار على عتبة الخلوة ــ المرتفعة بضع درجات عن الارض ــ لمع وجهه الوسيم الونيس في ضوء الكلوب المعلق فى عارض الباب ، وكان يبتسم ابتسامة عريضة تدل على انه ينتظر بالفعل بشارة كبيرة فما عساها تكون ؟!..

قال « عز الرجال » وهو يشير الى المريدين والاتباع :

ــ « ابناؤك هؤلاء يتعاركون ويتضاربون ياعم ! »

ــ « ألهذا دعوتني ياعز الرجال ؟! » ..

ــ « عدم المؤاخذة ياعم !.. قصدت ان اقول لك .. ا .. اقول ما كنت تقوله لنا دائما .. القول تائه عن .. تائه عن بالى ولكن .. قصدت .. » .

ــ « كيف تريد قولا ويتوه عن بالك ؟! » ..

وحدثت موجة من السخرية طافت بوجوه الجميع ، وبدأت اصواتهم ترتفع بلفظ غير مفهوم ، ولولا وجود الشيخ لوجهوا الشتائم لعز الرجال ، لكن الشيخ وجه اليهم نظرة جانبية حارقة ، وقال بشيء من الغضب :

ــ « دعوا عز الرجال يتكلم .. لا تشوشروا عليه ! »

قال « عبد السلام الكويس » :

ــ « ومنذ متى كان عز الرجال يتكلم ؟ لقد تسرع وناداك .. وليس يريد قول شيء بالمرة !.. الست تعرف عز الرجال ياعم ؟ » ..

فبدا على وجه « عز الرجال » انه قد تلبسته حالة غضب تنذر بانفجار خطير ، وانه يعانى لكتمان انفعاله ، سرعان ما ظهر انه يعانى من شيء آخر ، هو البحث عن القول الذى يريد ان يقوله للشيخ ، وصار يهز يديه بجوار رأسه مبرطما فى محاولة للتذكر ، ثم رفع يده هاتفا كأنه وجدها :

ــ نعم ياعم ! هؤلاء ضربوا على ابصارهم غشاوة !! »

ــ كيف ؟! »

هكذا قال الشيخ بلهجة ممطوطة بنبرة ذات معنى . فظهر على وجه « عز الرجال » ان الكلام قد بدأ يواتيه ، اذ رفع يده قائلا فى لهجة طفولية وبصوت تخين ملىء بالبراءة والصفاء :

ــ « هؤلاء ياعم ! حدثت أمامهم الاية !.. ونسوا وصيتك لنا !! » ..

ثم صمت كأنه افضى بكل مالديه من قول ، مما دفع « عبد السلام الكويس » الى ان يشوح نحوه فى تقطيبة مهذبة احتراما للشيخ :

ـ « آية ماذا يارجل ؟! .. يارجل فضك من الموضوع !
لا تقلق بال الشيخ بدون داع ! » ..

وهنا ظهرت فى عينيه غمزة خبيثة لكنها لطيفة ، يلوح بها للشيخ ولعز الرجال بأن عز الرجال اذا كان عقله مختلا والجميع يعرف ذلك فعلى الشيخ الا يشغل باله به ، حينئذ كان « عز الرجال » ينظر بالفعل نظرة بلهاء صافية تدل على انه فزع فزعة لم يكن لها اى لزوم وهاهو ذا خجل منها . لكن الشيخ لم يكن ليقتنع بهذا ، وسلط على عز الرجال نظرات حانية مشجعة مذكرة كأنها تريد أن تمسك بلسانه وتحركه بأوضح كلام . ثم قال :

ـ « اعرف ياعز الرجال ان لديك قولا هاما تود أن تقوله لنا .. وانت لم تقله بعد .. فلا عليك .. يمكن أن تقوله لى بعد حين .. وان كانوا قد شوشروا عليك ولخبطوك واطاروا الكلام من دماغك .. ففى سبحة الفجر المقبل يمكن أن تحكى لى مارأيت ! »

قال « عز الرجال » بلهجة طفل صادق يدافع عن صدقه ولكن الكلام لا يسعفه :

ـ « ياعم ! .. انت لابد قد فهمتنى !.. اخوتى هؤلاء .. ضربوا على ابصارهم غشاوة ! .. حدثت الآية امام اعينهم ! . فتركوها .. وراحوا يتعاركون ويتضاربون !! » .

صاح « عبد السلام » فى تحفظ :

ـ « يارجل .. اتق الله ! .. طب قل ماذا فعلناه بأنفسنا مما تزعم انه عراك ! » ..

فركب صوت الشيخ على صوته :

ـ « بل قل لنا ماهى الآية ؟! » ..

فشوح « عبد السلام » نحو الشيخ فى حركة رجاء :

ـ « ياعم ! لا تشغل بالك ! .. آية ماذا تلك التى يتكلم عنها ؟! » ..

رفع الشيخ ذراعه نحوه ليسكته بلطف :

ـ « حلمك ياعبد السلام .. مادام جاء بذكر آية فلابد يكون قد رأى آية !.. ان الآية امر لايكذبه الانسان ! يكفى نطقك لكلمة الآية !. والآية قد يراها هو ولا تراها انت مع وجودكما معا فى نفس اللحظة

فى نفس المكان ! .. وهناك نفس تعجز عن رؤية الآية وهى ماثلة امامها ! ونفس تكتشفها وهى مارة من بعيد !.. ان الاية رؤية كما قلت لكم مرارا وتكرارا !! » ..

هنا فزع « عز الرجال خلاف » فزعة اخرى اعلى من السابقة ، وهتف بفرح صبيانى :

ـ « بالضبط هكذا ياعم !.. اقصد .. هذا هو الكلام الذى كنت أحاول تذكره .. مع أنه كان على لسانى منذ برهة ! .. والان تذكرت قلت لنا ياعم ذات يوم : ان الانسان اذا رأى فعلا شاذا .. اقصد غير طبيعى .. فانه ـ هذا الانسان يعنى ـ لا يصح أنه يجعله يمر هكذا .. اقصد .. على ماأتذكر .. » .

صاح الشيخ باسما رافعا ذراعه نحو « عز الرجال » :

ـ « فهمت ! فهمت ! انت تقصد قولى : ان كل فعل شاذ ، وراءه طرف شاذ ، وعلينا حين نبصر هذا الفعل الشاذ ، ان ننظر فى هذا الظرف الشاذ ! لنعرف ماالذى ادى الى هذا الفعل الشاذ !

وعندما نفهم ، نكون قد اكتشفنا آية ! فالآية يعنى البينة : اى نكون قد صرنا على بينة من امرنا !! » ..

اثناء ذلك كان « عز الرجال » مستغرقا فى حالة طرب هائلة تنتعش ملامحه وتتراقص مع كل كلمة وعند نهاية كل جملة ، الى ان صاح كالذى شفى غليله :

ـ « الله يفتح عليك ياعم !.. الله يفتح عليك !..

هذا هو سلاسل الذهب الذى تمنيت ان اقوله لكم منذ برهة ! ولكن اين انا من سيدى وتاج راسي صاحب الكلام ؟! » ..

فابتسم الشيخ وكاد يستغرق فى الضحك اغتباطا ، ثم ردد فى حب واضح :

ـ « الله يجازيك ياعز الرجال .. ها انت ذا تتذكر كلاما كهذا قلته من سنين .. ولم اكن اقلهالك بل لناس يدركون مراميه .. كتر خيرك .. هذا يعتبر معجزة بالنسبة لك !! » ..

صاح « عز الرجال » وقد استخفه طرب الطفل حين يكسب تأييد الكبار ، وكان نكاد نؤتى حركات نزقة :

« المعجزة هى مافعله ابنكم الشيخ اسماعيل !

أقطع ذراعى ان ماكانت معجزة ! » ..

ـ « جميل ! قل لنا الآية التى تبينتها ! »

تهيا « عز الرجال » للكلام ، بأن رفع يديه وبدا انه يفكر فى المدخل

الصحيح للكلام ، حينئذ تقدم الطابخ نحو الشيخ فى محاولة لتسفيه « عز الرجال » وتسخيفه وانهاء الأمر ، اذ قال :

ـ « لا تشغل بالك ياعم ! كل مافى الامر ان ابنكم الشيخ اسماعيل ـ اطال الله عمره ـ صحا من النوم دهشانا محظورا .. ف .. جاء يتبول .. فجاءت بولته فى قلب الحلة المليئة باللحم المطبوخ حيث كنت قد كشفت عنها غطاءها لخروج الدخان !.. هذا كل ما فى الامر وهو خارج عن ارادتنا ! » ..

حينئذ برقت فى عين « عز الرجال » نظرة تلمع بالافكار ، فى حين اخذ الشيخ يهز راسه ويزوم هزات ذات معنى تدل على انه مندمج فى التفكير مرددا :

ـ «ماشاء الله ! ماشاء الله ! »

صاح « عز الرجال » فى صبيانية لطيفة :

ـ « اقطع ذراعى أن ماكانت معجزة ! هـــذا ام لا بذمتـــك ياعم ؟! » .

قال الشيخ فى نبرة متاملة مفكرة :

ـ « هذا بالفعل شيء شاذ! فعل شاذ من ابنى الشيخ اسماعيل ! لم يفعله طول حياته ! تعود ان يقضى حاجته هـــذه فى مكانهــا الطبيعى ! حتى ولو كان نصف نائم ، حتى ولو كان نائما ، انه يعرف طريقه جيدا ! »

قال الطابخ :

ـ « لعله كان يحلم ياعم ! ومنظره كان يدل على ذلك ! كان نائما ! ولم يرد علينا حين جرينا نحوه ! وحتى بعد ان نبهناه ظل يواصــل التبول فى الحلة حتى أنهى بولته واندفع يجرى الى الداخل !! »

قال الشيخ فى شيء من الحماسة :

ـ « انت اذن تؤكد ان الفعل شاذ للغاية ! ولابد ان يكون وراءه ظرف شاذ ، خاص بنا ، او بشيخنا الصغير ! ولما كان الفعل قد اصاب الطعام الذى كنا سناكله ، اذن فالنـــذير موجـــه لنــا نحن ! » ..

صار « عز الرجال » يشب وينتفض من كثرة الطرب ، واخـــذ يصيح :

ـ « اقطع ذراعى ان ماكان الشيخ الصغير يقصد أن ينجينا مـــن وقوع كارثة لعلها موتنا جميعا !! »

هتف الشيخ فى غبطة :

ـ « هو ذاك بالفعل ياولدى ! هو ذاك .. انظروا
في امر هذا اللحم فلم تعد لنا به حاجة ! » ..
فانبرت أيد وجاءت بالكلوبات ، ساروا يتقدمهم « عز الرجال » نحو الحلة . رفع عنها غطاءها واقترب حامل الكلوب فانكشف سطح المرق فاذا هو فى لون الكريم اللامع المجزع يخفى زرقة كزرقة البحر ..

تناول « عز الرجال » المغرفة الكبيرة وخرم بها سطح المرق فتشعث وتماوج ،وخرجت المغرفة بقطع من اللحم مزرقة ، اسقطها «عزالرجال» فى الحلة ، ثم جاس بالمغرفة فى قلب المرق ، ثم ارتعشت يده فجأة ، فنزعها بخوف وهو يقول :

ـ « أعوذ بالله .. فى الحلة فخذ كامل بدون تقطيع ؟! »

قال الطابخ وقد اقشعر بدنه :

ـ « فخذ كامل ؟! غير صحيح ! »

دفع « عز الرجال » المغرفة بقوة ، ثم نزعها بقوة ، فاذا هى تخرج حاملة جسدا يتمطى بغير نهاية ! تبينوا فيه ثعبانا فى غلظة عرق الخشب وطوله !..

رجحوا جميعا انه ذلك الذى كان يسكن فى سقف الجيران الملاصق لجدران الكانون مباشرة ، ولم يكن له مأوى سوى احمال القش والحطب المتراكمة على السطح باستمرار ، ولقد ازيل منها اليوم طبقات كثيرة اشعلت تحت الحلة لانضاج الثور . ولابد ان الثعبان ضاق بحرارة الجو وبسقوط عشه فاغترب فلاذ بالفرار الى قلب الخطر ، حيث تخطى سقف الجيران ودخل فى شق ظنه جحرا عميقا فاذا به مفتوح على الكانون فلم يستطع الرجوع من نفس الثقب الضيق فصارع كثيرا حتى اختل توازنه فسقط فى قلب الحلة فانسلق على مهل ! ..

رجحوا كذلك انه وقع بعد تناولهم العشاء مباشرة واثناء اندماجهم فى الذكر ..

لكن « عز الرجال خلاف » شوح بعصاه فاستوقفهم عن الاستطراد فى حديث الترجيحات ، ثم قال :

ـ « مانحب كثرة الكلام .. الثعبان اكثر منا غراما بالموسيقى كما قال الشيخ ذات يوم ! والواضح ان موسيقى المنشد هى التى دحلبته وجاءت به الى مصيره .. وعلى فكرة .. يخيل الى اننا سنكون كهذا الثعبان التعيس يوم وقوفنا على الصراط المستقيم .. تسقطنا

شرورنا فى قلب الجحيم على نغم الموسيقى !! »..
حدجه الشيخ بسرور عظيم مرددا :
ـ « فعلا ! يضع سره فى أضعف خلقه ! » ..
وقال « عز الرجال » في اغتباط طفل نجح فى الامتحان :
ـ « احلف بالله وبكل الانبياء والاولياء ، اننى مارايت الثعبان وهو يسقط ! لكننى رايت فعلة الشيخ الصغير فذكرت قول عمى الكبير فأردت ان اجربه لاول مرة فى حياتى ! » ..
اوما الشيخ براسه فى اعجاب وتقدير وكثير من الغبطة ، ثم اردف قائلا :
ـ « اكرمك الله ياعز الرجال !.. انت الان اثبت نفسا طيبة شفافة وروحا عالية وشفافة ! .. ولسوف يغمرك الله بفيضه ! »
ولاح « عز الرجال » كأنه أسعد مخلوق فى الدنيا . وراح الجميع يسلطون عليه نظراتهم الذاهلة التى يشوبها امتنان وتقدير ، فى حين سطعت على شفتى الشيخ ابتسامة ذكية رائقة ، ركنها فى جانب من فمه وقال :
ـ « ان العلم فى الكتب اى نعم ، ولكنه موجود ايضا فى الحياة والناس .. فى التجربة والموعظة .. وتستطيع كل نفس مجاهدة مجالدة شفافة ان تحصلها وأنكم لبالغوها فى يوم ما .. فمن سار على الدرب وصل ! » ..
بدت الراحة على وجوههم ، ثم نكسوا رءوسهم فى خجل كما لو كانوا يشعرون انهم ليسوا أهلا لهذه المجاملة الاخيرة . وقال عز الرجال :
ـ « صحتك هى أغلى شىء فى الدنيا ياعم !.. ان الواحد يزداد نورا يوما بعد يوم فى مجلسك ! » ..
رمقه الشيخ بنظرة انبهار وافتتان . مد ذراعيه الى الامام مفرودين فى دعوة للاحتضان . فتقدم « عز الرجال » نحوه كطفل يركض الى أبيه متعثرا فى خجله وحيائه . صعد درجات السلم الطينى فصار فوق عتبة الخلوة ، رمى بنفسه فى حضن شيخه وانفجر فى بكاء حار ، والشيخ يربت على ظهره فى حنو شديد . أخيرا اعتدل « عز الرجال » فأحاطه الشيخ بذراعه ومضى به داخل الخلوة والصحاب خلفهم .
تتبعهم « عبد السلام الكويس » ورجاله بنظرات ذاهلة بلهاء فلما اختفوا داخل الخلوة صاح فى الطابخ :

ـ « ثلاث خرفان من عندى تدبحها للفطور وغداء الشيخ حلاوه نجاتنا اليوم ! »

ثم استدار وعدل طوقه واصلح وضع الطاقية على راسه ومضى نحو الخلوة . ففوجىء ب « عز الرجال » يخرج من الخلوة ثم يقف فوق العتبة مشيرا بعصاه نحو الجميع ثم يصيح محذرا :

ـ « احذرا ان تلقوا بما فى الحلة الى ترعة او قناة او بئر ساقية او حقل او حتى شارع !.. والا تكون قد دفعنا المصيبة عن انفسنا والقينا بها فوق رءوس العباد » ..

فقال « عبد السلام الكويس » :

ـ « افحتوا بئرا بجوار المقابر وادلقوا فيه الحلة ثم اردموه » .

ومضى خلف « عز الرجال » يتمسح فيه ويحيط ظهره تبركا به .

الوجود !

كان ذلك الحادث تأكيدا لمشيخة اسماعيل الطفل ، ولكرامات « عز الرجال خلاف » وبعد نظره ، الامر الذى لم اكن مقتنعا به من قبل رغم ان « عز الرجال » كانت له فى الاصل بعض نوادر ضاحكة تدل على فطنته وحكمته ، اقربها خناقاته مع زوجته « ست الحسن » اذ يترك لها الدار وبعد ايام يعود كأن شيئا لم يكن فلا يجرى عتاب او حساب . فيسأله الرجال العابثون من امثال الولد « جنوم » الذى شاب شعره ولا يزال الجميع ينادونه بالولد لكثرة عبثه مع الرجـ بملاعيب العيال : لكن ازاى ياراجل ترجع تنام فى حضنها تانى بعد الشتيمة دى كلها والتهزىء ده كله ؟!. يرد هو قائلا : كل ساعة ولها ملايكه ياسى جنوم . يعنى ايه ياعز الرجال ؟ يعنى الساعة السيئة اللى نفوت كفاياها وآهى فاتت ! ايه لزوم انى اخسر الساعة لحالها ؟! دى زى ذنب ارتكبناه واتعاقبنا فى ساعتها حنكرره تانى ؟! ياعم دى الدنيا غويطه والعمر قصير ! ده عمر البنى آدم كله مايكفيش العبادة لوحدها ! يادوبك كده !!..

ثم اننى صرت بعد ذلك اذا رايت ناسا يتحدثون عن « عز الرجال خلاف » بانه مجنون هادىء فاننى اوافق ! واضيف الى حكاياهم عنه نادرة من عندى تؤكد ماذهبنا اليه !. واذا رايت ناسا يتحدثون عنه بانه شيخ واصل وله كرامات فاننى اوافق ! واحكى كذلك نادرة تشى بذلك ! . واذا رايت ناسا يتحدثون عنه بانه مجرد درويش مجذوب لا تعنيه مسالة الوصول او الاصول اذ لاخبرة له ولا ادراك لمعنى المجاهدة والمواجيد ، فاننى اوافق ! وفى هذه الحالة

لدى محصول وفير من النوادر والحكايا التى يتناقلها الناس عنه !..
فشخصيته بهذه الصفة الاخيرة تعتبر مجالا واسعا لتاليف النوادر يختلقها الناس فى لحظات الفوقان والمرح !..

البلبلة

على ان شبنا غريبا حدث قبل موته اليوم باشهر قليلة جعل البلدة كلها فى بلبلة حقيقية مثلى واكثر ! حتى لقد لاحظت ان الشـــخص الواحد يقول بالآراء الثلاثة ربما فى مكان واحد فى لحظة واحدة كأنه يصدق الاراء الثلاثة بقدر مايرفضها ! لذا ترى الناس كلهم فى مكان ما يقولون انه مجنون صرف ! وفى مكان آخر يقولون كلهم أنه واصل وذو كرامات وان الذى يفعله من هذيان وجنون هو الكرامات بعينها !

وفى مكان ثالث يقولون أنه درويش مجذوب يسوق العبط على الهبالة !!

يقولون بكل ذلك بنفس الحماس والحكى بمزاج رائق !!

روحية والحطاب

.. كان « عز الرجال خلاف » متمطرقا فى شمس الظهيرة بجوار تندة دكان تاجر البطيخ والخضراوات « غازى ابو داوود » يـــكلم نفسه ينفخ بهرش ذقنه من خلال لحيته الطويلة ينقر الارض بعصاه الحديد نقرات تشبه توقيعات ينظم بها نغما فى رأسه أو فى الكون يربد جذبه الى اذنه ..

لحظتئذ كان « محمود الشامى » الاجير مقبلا يتهادى نحـــو مصيبته ..

« محمود الشامى » كهل معدم ، لا يملك من حطام الدنيا غـــير سقف مبنى بالطين تملكه امه فى حارة النجايمه ، وحمار هزيل فوق انه عجوز ، يقطع المسافة من الدار الى الشارع العمومى فى صحية ، والمسافة من الشارع الى الترعة القريبة فى ضـــوه ، والمسافة من الترعة لاى حقل فى ضهرية ، ولايبقى امام « محمود الشامى » سوى عصرية ضيقة يحتطب فيها ، يجمع اى عيدان واى حشائش نافعة تصادفه فى الطريق ، فيعود فى المغربية وظهـــر

الحمار العجوز الهزيل يئن تحت حمل من اشياء مختلفة عجيبة : حطب ، بوص ، افرع شجر جافة ، عيدان ذرة عويجه خضراء ، عيدان تيل .. وفوق الحمل يركب هو ..

حظ الحمار حسن ، اذ ان « محمود الشامي » يبدأ في بيع هذه الحمولة من بداية دخوله بين المساكن الخارجية المتطرفة عن البلدة متطفلة على الطرقات والحدائق والمساحات الخضراء ، بل ان له لزبائن يعرفون ساعة اوبته . « حسن » خفير الجنينة وزوجته « روحية » ينتظرانه على كوبرى ترعة السلمونية . انهما جيران « محمود الشامى » الحائط فى الحائط ولانهما يخفران هذه الجنينة فانهما لا يبيتان فى دارهما الا بين ليلة واخرى خاصة فى الايام التى تخلو فيها الاشجار المحاذية للطريق من ثمار تسرق . يصنعان للطريق ونسا ، ينتظران ـ بكوخهما الواقف على هامش الطريق كأنه منتظر هو الآخر ـ يؤجلان تسوية شاى الدور الثانى الى أن يظهر شبح الحمار كظل متحرك لشجرة هرمة . واذ يبلغ « محمود الشامى » كوخهما يجدها فرصة يستريح فيها الحمار ويشم هو نفسه ،ويجدانها فرصة لانتقاء ماقد يكون فى حصيلته من خضراوات سرقها خلسة من الاراضى : شوية ملوخية ، قرنين بامية ، طماطمايتين ، خيارتين . هو صحيح يسرقها لامه العجوزولنفسه لكن لابأس من تنازله عن بعضها رضاء او كرها . ان مامعها سيظهر من تلقاء نفسه ، اذ ان «محمود الشامى » سيجلس ليشرب الشاى ، وسيفك الحمل ليبيع لهما كل مافى حصيلته من أعواد جافة يستخدمانها كوقود للتدفئة والطبيخ والشاى ، وسواء كانت الاغصان الجافة كثيرة او قليلة ـ ورغم انه سيشرب الشاى دورين ثقيلين ـ فان « روحية » زوجة « حسن » الجناينى حين تدب يدها الصغيرة فى سيالتها يصيح هو قائلا بصوته العجوز المشروخ الاهتم :

ـ « الواحد بأربعة ياروحية ! الواحد بأربعة ! اعملى حسابك ماتطلعيش غيره ! يعنى حتى لو فكه مش عايزهم ! » ..

« الواحد بأربعة » قطعة نقود من الفضة فى حجم زرار الجلباب مبططة على ستة اضاع قيمتها قرشان أى أربعة تعريفة أى عشرين مليما ، جميلة الشكل حقا كما هى جميلة الملمس ، على وجهها صورة الملك فاروق وعلى وجهها الآخر كتابة كشهادة ميلاد لهذه القطعة فى المملكة المصرية .. وكان اولاد الذوات واولاد الطالعين

فيها من اهل بلدتنا ، والذين يلبسون جلابيب بياقة وصفرة واساور وجيب على الصدر ، يسمون هذه القطعة « نص فرنك » ..

« الواحد بأربعة » هو مطلب « محمود الشامى » لقاء هذه الكومة من الاغصان والاعواد الجافة ، مبلغ كبير ، صحيح أن الكومة ـ كما يقول ـ لو بيعت فى المدينة لساوت عشرة قروش صاغ .. ولكن أين نحن من البندر ؟ ثم ان هذه الاغصان متوفرة هاهنا واى واحد يستطيع ان يجمعها ، فلا فضل لـ « محمود الشامى » اذن سوى جمعها فهل يساوى ذلك « واحدبأربعة » بحاله ؟!..

هكذا تقول له « روحية » وهي تضع حبتى عينيها كل حبة فى ركن قصي ، محاصرة بهما رجولة « محمود الشامى » التى لاتزال رغم الكهولة بارزة واضحة قوية طاغية تزرى برجولة زوجها « حسن » الواهنة رغم انه دون الخمسين بكثير !.. عارفة مقدما ان زوجها فى الاصل بلا نخوة تستثار ! ومتأكدة ان « محمود الشامى » فى الاصل ذائب فى هواها اسير لعينيها لكنه مع ذلك لن يتنازل بأى حال من الاحوال عن الواحد بأربعة ولن ينوبها سوى المناهدة ووجع الدماغ ! . مع ذلك تمسك بطرف المنديل المعقود على بضع نقود فى حجم دمل كبير ثم تبقيه معقودا علامة على انها لم تقبل السعر بعد وقد لا تقبل البيعة من اساسها ويضطر هو لاعادة ربط الحمل من جديد ، اخيرا تقول وقد عادت عينها الى المنديل كسيرة مهيضة :

ـ « واحد بأربعة بحاله ؟ادا يومية راجل طول النهار بامفترى ! » ..

يضغط آخر شفطة في كوب الشاى ويشوح بيده السرحة قائلا : ـ

ـ « ماهو ده يوميتى انا وحمارى ! »

تغتاظ منه ، لا تجد شيئا تعاقبه به سوى ان تعطى له اربعة تعريفة فكه ، لكنها أمام تشويحه وتحت اصراره تزيح التعريفات والقروش بأصابعها متجاهلة قطع الواحد بأربعة الجديدة ، وهى تجد انها لا ترحب بالواحد بأربعة بين نقودها لانه يغالطها ويخرب بيتها اذ ان شكله يشبه شكل العشرين خردة تماما وهى قطعة مسدسة الشكل ايضا ومن الفضة كذلك ولكن قيمتها نصف تعريفة اى مليمين ونصف . و « روحية » كثيرا ماتبيع فواكه الحديقة خلسة

المارة وتتقاضى منهم عشرين خردة على انها واحد باربعة ، وكثيرا مابطلب احدهم بقية قرش فتعطيه واحد باربعة على انه عشرين خردة يخطر لها وهي تقلب فى حفنة القروش ان تعطى لـ « محمود الشامى » عشرين خردة على انها واحد باربعة ، تكاد تفعل ذلك لكن « محمود الشامى » يصيح فيها محذرا : « لا لا لا .. واحدة تانية شبه دى » . ينشرح وجهها لانه نبهها باعتبارها بريئة لاغشاشة تعطيه الواحد باربعة كانها تزغده به فى كفه !..

بعدها يجد « الحاجة زهره » بائعة الفسيخ تنتظر امام دكانها وامامها صفيحة للفسيخ واخرى للسردين فوقها لوح خشبى تعرض عليه البضاعة قبل لفها ، تشترى من محمود الشامى ما معه من حشيش ونجيل اذ ان لديها حجرة كاملة ملآنة بالارانب والبط والدجاج ، تعطيه فى العادة قرشا وسردينة او راس فسيخة كبيرة .

واما اعواد البوص فانه يحتفظ بها ليسويها وينظفها ثم يربطها الى بعضها بخيوط الدوبارة صانعا منها انواعا من الحصير تصنح كفرشة للنوم والجلوس يمكن غسلها بالماء كلما اتسخت ، وانواعا من الابواب وحظائر الدجاج واسقف الحجرات فى يوم الجمعة من كل اسبوع وهو اليوم الوحيد الذى يستريح فيه حماره ..

واما اعواد الذرة الخضراء او البرسيم فان زبونها مرابط فى الشارع العمومى ، انه « غازى ابو داوود » تاجر البطيخ والخضراوات ، اذ لديه خروف وعنزتان ولادتان يربطها كلها فى حوامل الشدة الخشبية البارزة فى الشارع عن باب الدكان ..

كان الناس يتاهبون لصلاة المغرب و « عز الرجال خلاف » ذاهل فى جلسته ، ناسيا ان الشمس التى كان يطلبها قد غربت تماما . ولحظتها كان « محمود الشامى » قد فك الحمل عن الحمار وانحنى يفرز الاعواد الخضراء كى يتركها لـ « غازى ابو داوود » ، الذى اخذها بالفعل ورصها فى حذاء « عز الرجال خلاف » وذهب لاحضار ثلاثة تعريفة من درج الحصالة فى حين انشغل « محمود الشامى » يلم بقايا حمله المتناثر على الارض ، ولم يفطن الى أن حماره الجائع منذ سنين طويلة قد سال لعابه حين راى الاعواد الخضراء التى كان يحملها قد صارت أمام عينيه مباشرة على مقربة من تناوله ، فتسلل نحوها آخذا فى طريقه « عز الرجال خلاف » دون احم او دستور ، فجأة انتزع « عز الرجال » من بئر الغيبوبة الطويلة

العميقة وفتح عينيه فوجد الحمار واقفا فى حجره بقدميه الاماميتين ورقبته الطويلة تعبر كتفه الى حيث وضعت الاعواد الخضراء فوق دكة خشبية ! ..

فى تلك اللحظة ــ لابد ــ جن جنون « عز الرجال » حقيقة ، فسن عصاه الحديد ، وبكل قوته ، زغد الحمار فى بطنه ، فانتفض الحمار نائحا رافعا نصفه الامامى كله الى اعلى كالبهلوان ليسقط بكامله فوق « عز الرجال » يكاد يفطسه . بسرعة مدهشة انتزع « عز الرجال » نفسه من تحت الحمار فخرج بدون خرقته ووقف عاريا تماما وشرر الغضب يتطاير من وجهه وعينيه . وكانت العصا قد صارت فى متناوله ، فهوى بها فوق راس الحمار بضربة جانبية شرخت الاذن وهشمت الفكين ، فلفظ الحمار آخر انفاسه ، فيما يترع « عز الرجال » خرقته ثم يرتديها بكل بساطة ، وسط صراخ « محمود الشامى » الذى راح يلطم خديه ويشق هدومه ويصيح فى لوعة :

ــ « عملت كده ليه ياشيخ زفت ؟! » ..

فهرش « عز الرجال » فى لحيته ونفخ :

« بده يرفس ! » ..

ونفخ مرة اخرى فى وجوه اللمة من حواليه ، فانفجروا جميعا ضاحكين رغم شدة أسفهم لخراب بيت « محمود الشامى » ووقف حاله . وكان « محمود الشامى » يهم كثيرا بالهجوم عليه والفتك به ، لكن عقلاء كثيرين من الجمهور كانوا يعترضونه من ناحية ، وعصا « عز الرجال » الحديد كانت تلوح بالويل من ناحية اخرى . فى النهاية جلس « محمود الشامى » على عتبة الدكان يبكى بحرقة . اما « عز الرجال » فانه مد عصاه ووسع بها مكانا بين اللمة ، ثم مضى الى حال سبيله كأن شيئا لم يكن ! ..

يومها احتشدت سماء البلدة بالاخبار الغريبة والاشاعات العجيبة المريبة اذ الناس كلهم فى حمى البحث عن سبب يدعو « عز الرجال » لهذه الفعلة العنيفة لاول مرة فى حياته ..

قال الولد « جنوم » وهو جار لـ « محمود » و « روحية » ان الحمار كان يستحق الذبح فعلا ، ثم مال على الآذان وهمس من بين شفتيه الغليظتين العابثتين على الدوام بغريب الاشاعات ، ملوحا بانه كثيرا ماشاهد حمار الشامى يتسلل فى الليل الى زريبة « حسن » الجناينى متخطيا نصف جدار يحجز بين الدارين ، وانه شاهد

« روحية » تحتضن الحمار وتغيب عن وعيها دقائق كثيرة ! ..

وقال « غازى أبو داوود » ان « عز الرجال » نفذ مشيئة الله بأن يستريح هذا الحمار من غلبه الازلى !..

وقال خفير الدرك وهو يكتم ضحكة خبيثة ونظرة جنونية ان حقيقة الامر عنده هو ، اذ انه فى كثير من الليالى كان يرى « عز الرجال » كامشا فى كوخ « حسن » الجناينى لساعات طويلة ربما معظم الليل وانه ذات ليلة ضبط « عز الرجال » و « روحية » معا وحدهما : اى ان « عز الرجال » - فى حقيقة الامر - يرى ان « محمود الشامى » غريمه فى حب « روحية » ، وقد تعمد ايذاءه على هذا الاساس ! ..

وقال ولد من هواة السهر بين الاشقياء ان « حسن » الجناينى هو الذى اوعز لـ « عز الرجال خلاف » ان يؤذى « محمود الشامى » لان « حسن » الجناينى يعتقد ان « روحية » تخونه مع « محمود الشامى » ! غير ان « عز الرجال » جبن عن ايذائه فقتل حماره ! ..

ومع ذلك فان اهل البلدة بعد ان رددوا هذه الاشاعات طويلا عادوا فتنكروا لها ، وقالوا : عيب ! لا داعى للخوض فى أعراض الناس ! ..

واليوم مات « عز الرجال » قبل أن يكتشف الناس الحكمة الكونية البليغة التى دفعت « عز الرجال » لهذه الفعلة الغريبة ! .. وكان ميزان الرأى العام فى البلدة قد بدأ يميل تماما نحو اعتبار « عز الرجال » مجرد مجنون لا ازيد ولا اقل !..

مع ذلك فهاهم الآن كلهم قد تجمعوا امام دار زوجته « ست الحسن » بمجرد علمهم بخبر وفاته ، حتى « محمود الشامى » هو الآخر قد حضر وجلس كسيف البال حزينا . وهاهى ذى الجموع تهدر فى صيحة واحدة مليئة بالورع والتقوى : « لا اله الا الل .. ه .. »

البوتقة

مسحتهم بنظرة ، خيل لى انهم جميعا قد انشدوا فى كتلة واحدة على صفين متقابلين بعديد من الرءوس المتساوية فى الحرارة والانفعال والجدية والالم ! كان نارا خفية سرت بينهم فصهرتهم جميعا فى جسد واحد ، وكان يبدو عليهم كانهم الآن فقط قد ادركوا حقيقة امر « عز الرجال خلاف » ، وانهم لو رأوه الان لجثوا عند قدميه

يطلبون الصفح والمغفرة ، بل ان الشبان الضاحكين تبدو الآن عليهم جدية عميقة وهم يرددون : ماشاء الله ! ماشاء الله !.

حي على العناق

كانت اجمل صلاة عصر شاهدناها ، اذ تحرك الجمع الغفير نحو مسجد الجرانة فملآه عن آخره وملأ الفراغ المجاور له .

وكان اول ميت فى بلدتنا يخرج نعشه قبل وصول الناس من الصلاة ،حيث تكاتف الولدان الذين يطلبون صفح « عز الرجال » — ربما عن ذنوب لم يرتكبوها — فحملوا نعشه فأوقفوه على ناصية الشارع العمومى وقد غطوه بشال من الكشمير الثمين المزركش وربطوا اطرافه بالنعش ، الذى انتصب واقفا على اربع كالمحمل الجميل ..

تحلقناه ونحن نتجنب النظر فى عيون بعضنا البعض مداراة للبكاء النابت فيها ، وقد بدا لى اننى وكل الولاد قد بدأنا نعرف « عزالرجال خلاف » لاول مرة فى حياتنا . الولد « شوشة » ابن خالى يلامسنى هامسا : « طب والله وكتاب الله ياد يامحيى انا كنت باتغاظ من ست الحسن لما كانت تشتمه ! » . فوجدتنى اقول له انا الآخر : « والله العظيم وانا .. ولما كانت بتكرشه من دارها بابقى نفسى افتح له المندره بتاعتنا يبات فيها ! » . فقال الولد « شوشه » كأنه يستشهد بى أمام الله : « مش كده انا كنت باحبه وعمرى ما شتمته زى عيال حارتهم ؟! » وكنت اعرف ان الولد « شوشه » كثيرا ماشتم « عز الرجال » وجرى وراءه فى الشارع يزفه بالمعاكسة ، لكنى قلت له : « وانا كمان ياخويه عمرى ماشتمته دانا حتى كنت باتعارك مع العيال اللى بتشتمه ! » .

ثم انتبهنا الى زحف جموع الخارجين من الصلاة وتهيأت ابداننا لتلقى الرعدة حين يهب صوات النساء فجاة فى صيحة جماعية رهيبة . لكن هذه الصيحة تأخرت ، فانتبهت الى ان الميت ليس له نساء يصرتن عليه ، انتبهت كذلك الى ان الدار محتشدة منذ الصباح بعدد هائل من النساء ! ..

سرى بين الجميع همس يتردد من شخص لآخر سرعان ماارتفعت به الاصوات قائلة ان الشيخ زمانه الان فى آخر الطريق وسيحزن ان لم يلحق بالمشهد ويمشى فى موكب الدفن ، فمن اجل خاطر الشيخ ننتظر قليلا ..

توجه « عبد السـلام الكويس » نحو النعش قائلا فى رجـاء حار : ـ

ـ « لا تؤاخذنا ياعز الرجال ! لقد انتظرك الشيخ طويلا فى الايام الاخيرة فلا بأس من ان تنتظره برهة ! سياخذ على خاطره منك لو لم يلحق بك ويودعك الوداع الاخير ! » ..

وظل « عبد السلام الكويس » واقفا بحذاء النعش ينخرط فى بكاء ضعيف ولكن بصوت مكتوم ..

جاء « خليل البسيقى » ووقف جواره يهدىء من روعه . ثم تبعه « محمود الصالحى » ، و « جابر عسر » ، وفريق من اهل بلدتنا تحلقوا النعش وحجبوه عن الانظار وقد اندمجوا جميعا فى قراءة آيات من القرآن .

لحظات ردبت فى الجمع المتكاثف انتفاضة مفاجئة بعثت فيه كثافة جديدة وتوترا جديدا . بدأ الهمس يقترب : الشيخ وصل الشيخ وصل ! . ثم انشقت كتلة الجمع الى شقين ، ظهر بينهما رهط من الرجال النظفاء يرتدون الجلابيب الصوف وفوق الاكتاف عبـاءات من الجوخ الاسود الثقيل وفوق الرءوس شيلان من الـكشمير المزركش بالخيوط الملونة . وكنا قد رأيناهم وهم ينزلون عن ركائبهم عند دكان « غازى ابو داوود » فتكفل بها ناس كثيرون ساقوها الى الزرائب . وكان كل الاولاد وكثير من الرجال يحاولون رؤية الشيخ وتمييزه بين هؤلاء الرجال الذين يتصاعد المسك من ريحهم . ولمـا كنت اعرف الشيخ من قبل فاننى دققت فى وجوههم واحدا واحدا فلم ار الشيخ من بينهم . فلما استقبلهم « عبد السلام الكويس » و « خليل البسبقى » و « محمود الصالحى » و « جابر عسر » تبين انهم وفد من الشاذلية والبرهامية ممن يعرفون « عزالرجال » حق المعرفة وانهم كانوا مع الشيخ لحظة وصول النبأ فركبوا وسبقوه ..

ثم لم تمض دقائق معدودة حتى ظهرت ركائب اخرى ترج الارض نحو دكان « غازى ابو داوود » ، ثم مالبث الرجال الاخرون حتى ظهروا نحونا ، ميزت من بينهم الشيخ ، كان لايزال كما رأيته منذ سنوات ، نفس الجسد الضئيل اللحم مع طول فارع ، ونفس الوجه الابيض المستطيل الضارب الى الحمرة ضامر الوجنتين طـويل اللحية ، يلف رأسه بشال من الحرير الابيض الشفاف ، تطل من عينيه نظرة ودودة تستدعيك لتتعرف عليك تقول لك اتبعنى تكسب ، وانت بالفعل لابد ان تتبعها اينما سارت لانها نظرة تكبرك وان كنت

صغيرا توقرك ، وان كنت مهانا تمنحك الحب وان كنت صادى النفس قاحلها !! ..

وهكذا فقد سار الجميع خلفه كبيرا وصغيرا وكادوا ينشغلون عن الميت بالفرجة عليه وعلى بساطة ملبسه وشدة اناقته والورع البادى عليه حتى ليجبرك على ان تدعو له بالستر والتوفيق . ولقد ظهرت النساء فجأة من دار « ست الحسن » ومن وراء الابواب والشبابيك ومن فوق الاسطح ينظرن خلسة الى الشيخ !! ..

اندفع الشيخ نحو النعش فعانقه واتكأ عليه وسط ذهول الناس لمدة دقائق طويلة ارتفعت خلالها صيحات البكاء فجأة هنا وهناك . اخذت موجات البكاء تتصاعد وتتمدد حتى لاح كأن البلدة بكاملها تبكى كالاطفال مع أن الاطفال لحظتها لم يبك منهم احد ، بل وقفوا مبهوتين يتفرجون على هذه المظاهرة النائحة نواحا متقطعا يشبه الضحك فى ايقاعه وصوته لولا انهمار الدموع بغزارة كالمطر !! ..

لاح المأتم كأنه شيء جديد على البلدة ، فلم تخرج صيحة النساء تدب الاكف بالاكف نادبة ، وفوق ذلك خرج النعش من معقله دون أن يتشبث به أحد دون أن يغمره الصوات ، حتى ان صرخة واحدة شرعت ترتفع داخل الدار لكن « ست الحسن » شكمتها فقطعتها حسب وصية « عز الرجال » ، فلما سالوها هل اوصاك حقا ؟ قالت لا ولكنه لم يكن يحب ذلك ! ..

اخيرا رفع الشيخ وجهه عن عناق النعش وقد تخضلت عيناه بالدموع الدامية ، ثم قال : توكلوا على الله .

الزغاريد !

رفع الشبان النعش ، فى الحال رنت زغرودة مجلجلة راحت تتسلق النعش وترتفع على اكتاف الرجال . تبعتها فى الحال زغاريد اخرى . التفتنا ، تكاد الدهشة العظيمة توقف قلوبنا ، كانت صاحبة الزغرودة الافتتاحية هى « ست الحسن » التى وقفت على عتبة الدار شبحا هزيلا كعود حطب داخل ثوب واسع فضفاض ، يتحلقها رهط من النسوة تنثال الدموع الغزيرة على خدودهن ومع ذلك يجاوبنها فى الزغاريد ! كلها زغاريد رائقة صافية تشخلل البهجة فيها ، الا زغرودة « ست الحسن » كانت من الحجم الكبير الضخم تبتلع كل الزغاريد

الاخرى تستوعبها تعيد اطلاقها من جديد عبر حنجرة صوتها مجلجل يرعدنا يبهجنا حتى البكاء ! وكان واضحا أن هذه الحنجرة تزغرد بدلا من أن تصوت ! لقد نهاها المرحوم عن تشييعه بالصوات فلتشيعه بالزغاريد ! فلنصوت مغنية !!..

زغاريدها الطليقة الحارة صنعت سماء جديدة كمظلة واقية للنعش الانيق المهيب ، الذى مضى تحت سقف الزغاريد يحفه موكب هائل جليل ! كانما البر المصرى كله جاء يودع « عز الرجال خلاف » الى مثواه الاخير ! .. ولاح كانما الارض هى التى تزحف باربعاتهم وخمساتهم المتلاصقة ..

لحظتها تسلقت مع العيال سور ضريح سيدى « مطرف بن عبدالله » القائم على ربوة وحده متاخمة لربوة المقابر . وقف كل منا فوق ضلع من اضلاع الباب العالية .. فصار الموكب كله تحت اقدامنا مترامى الاطراف لانهاية له ولا بداية ، رءوس رءوس رءوس ، رءوس رءوس رءوس رءوس كسلاحف تتناطح والنعش بارز على السطح كطائر محلق . ثم لاح لنا ان النعش قد انفصل عن الاكتاف وهاهو ذا يسبح وحده فى الجو . وكان الموكب قد صار تحت الربوة مباشرة ، وبدأت اجنحته غير المنتظمة فى صفوف تزحف نحونا متطفلة على موقعنا تريد مشاركتنا فيه . ثم ظهر ان فى الامر شىء غير عادى جعلهم يتلهفون على هذه الوقفة مثلنا ..

ثم ان الروع قد اخذنا جميعا حين صارت الارض كلها تهتز بصياح فاجع محموم : فى عرضك ياعز الرجال ! عشان خاطرنا ياعز الرجال ! ماتشحتفش قلبنا معاك ! اهىء اهىء اهىء ..

هنا وجدتنى انا الآخر ابكى مع العيال دفعة واحدة . ذلك اننا رأينا باعيننا النعش يتطاير فى الهواء رائحا غاديا واذرع الرجال تشب ممسكة به فى قوة ، واذرع اخرى تسنده من الجنبين ، فيميل هنا تارة وهاهنا تارة اخرى ، ثم تتعوج مقدمته ذات الرأس الخشبية المرتدية الطربوش ، ووضح ان النعش يلوى عنقه يتمرد على وجهة القرافة يريد العودة الى البلدة !!..

هبطنا الربوة جريا سريعا فصرنا فى قلب المشهد بجوار النعش ؛ ولحظتها كان « خليل البسيقى » يقول للشيخ من خلال دموعه المنهمرة :

— « اظن انه قد جاء دورك ياشيخ فقل له كلمة فانه لابد ان يسمع

كلامك ! حدثه ياعم ! » ..
هز الشيخ رأسه وقال فى ثقة :
ــ « اعرف ان وراءه مشوارا قصيرا لابد ان يؤديه !
فدعوه يقوم بهذا الواجب ولا تبخسوا رجاءه !! » ..
قال من حوله :
ــ « اتعرفه ياشيخ !! » ..
قال الشيخ :
ــ « نعم .. عز الرجال يريد أن يزور اعمامه الاولياء فى اضرحتهم لقد حدثته عنهم طويلا فاحبهم وحفظ الكثير من اقوالهم وافكارهم ونقل الكثير من مجاهداتهم وطموحاتهم : سيدى سليمان العجمى سيدى على ابو دبوس ! سيدى هارون ! كان يجب ان يكون طريق الموكب مرسوما على هذه الخطة من الاساس بحيث نمر على كل هؤلاء فى طريقنا الى هنا ! لنقرأ الفاتحة ونصلى ركعتين ! فهل فى فى مقدورنا ان نفعل ذلك الان ؟ » ..
قال « عبد السلام الكويس » :
ــ « هذه بهدلة للجثة » .
وقال « خليل البسيقى » :
ــ « وهناك ازقة ضيقة فلا ينفذ منها النعش » ..
وقال « جابر عسر » :
ــ « اذا كان المرحوم قد حدث الشيخ عن هذا الامر فلابد من تنفيذ وصيته » ..
قال الشيخ :
ــ « قد حدثنى ! وكان فى حوار دائم معى ومعهم ! وكان حوارهم معه بجهده ويجهدنى حين يسألنى تفسيرا أو تعقيبا ! كان يتحاور معهم من خلالى ! » ..
قال « محمود الصالحى » مشيرا الى النعش :
ــ « خلاص ! ننتظره نحن هنا ويذهب هو بصحبة الرجال فيزور اصدقاءه ويعود ! فربما كان يحب ان ينفرد بهم !! » ..
قال الشيخ مسبلا عينيه :
ــ « ربما ! ربما ! » ..
قال « عبد السلام الكويس » :
ــ « هيا اذن ياجدعان » .

الثدى !

حمل الرجال النعش ثانية ، ثماني رجال ، كل طرف من اطراف النعش يتعلق به رجلان . مضوا به ، فانسربت وراءهم عدة أسراب من هنا وهناك ، نتكون المشهد من جديد مزدحما حافلا رغم أن الجرن العريض الملاصق للمقابر كان يغص بجموع المنتظرين !. ومرة أخرى بدأ النعش يرتفع ويهبط ويتمايل ويلوى عنقه كزورق صغير تتدافعه أمواج عاتية ،ترنحه رياح هوج . ومن جديد ارتفعت صيحات البكاء عالية زاعقة نواحة ..

توقفوا عن السير ، تدافعت الجموع تنضغط فى بعضها البعض موسعة فراغا صغيرا لرجل أسود الوجه غليظ الكتفين يحمل سيدة عجوزا تناهز السبعين من عمرها كورقة شجر يابسة . ذلك هو المعلم « حزمبل » وتلك هى « جل الخالق » ام « عز الرجال » . هاهو ذا حزمبل يوقف السيدة قائلا :

ـ « كلميه يا امه ! » ..

حينئذ تذكرت ، وتذكر كل الواقفين ، ان « جل الخـــالق » ام « عز الرجال خلاف » هى ام المعلم « حزمبل » ايضا ، أى انه شقيق للشيخ « جمعه » من الاب ، وشقيق لـ « عز الرجال » من الام . هاهو ذا يوقف امه بحذاء النعش ، فاذا هى تتشبث به وترتمى فـــوق النعش مطلقة من صدرها نفسا واهنا لا يكاد يسمع ، فى صوت أرادت ان يكون صراخا فجاء فحيحا له بعض الطنين الاجوف . راحت تملس على النعش وتقبله وتمسح وجهها فيه ، ثم دبت يدها العجفاء فى فتحة صدرها واخرجتها ممسكة بورم ضامر فى مقدمته حملة كحبة الزبيب مزرقة ، واتجهت بها نحو مقدمة النعش والرجال يغمضون اعينهم ويدارون وجوههم فى الناحية الاخرى . قربت العجوز لديها من راس النعش حيث تستقر راس ابنها ، وقالت فى فحيح غلبـــان منهزم :

ـ « بحق هذا الثدى الذى رضعته ياعز الرجال اهدأ نفسا وامض مع الرجال الى دارك الباقية ! لقد اتعبت الرجال ياعز الرجال واتعبت نفسك كالعادة دائما ! طول عمرك صعب الا تنزل عما فى راسك قط ! فانزل اليوم من اجل خاطرى ولا تفضحنا فى البلاد ياعز الرجـــال

ياولدى ! هيا فالله معك ! اعرف انك مكسوف من رؤية وجه الله وتعتبر نفسك مقصرا فى حقه ! كنت تريد ان تقابله وفى يمينك كتاب ثمين ! ان كنت مرتاعا من وجه الله فصالح اعمالك فى صالحك ! » ..

ثم استدارت الى الناس قائلة فيما يشبه الامر :

ـ « احملوه ! انا واثقة انه سوف يمضى معكم ! » ..

حملوه ومضوا ، وحمل « حزمبل » امه العجوز على كتفيه ومضى بها خلف النعش . ومضى الركب خطوات لكن حاملى النعش سرعان مافقدوا توازنهم وصاروا يتعثرون فى اضطراب ، نطقوا جميعا فى نفس واحد : الهمة ياجدعان ! . ثم تدافعوا كصبيان المراكبية يشدون حبل اللبان ، وقال احدهم :

ـ « النعش ثقيل ام نحن ضعاف البنية ؟! »

فقال آخر :

ـ « النعش لا يريد إن يتحرك » ..

وقال ثالث :

ـ « هانحن قد وصلنا » .

ظهرت قبة سيدى « سليمان العجمى » ، فتزحزحوا بالنعش حتى حاذوا قبة الضريح وصاروا جميعا يقرءون الفاتحة ويرفعون اكفهم نحو السماء فى ورع . ثم حملوا النعش ومضوا فى تثاقل . خرموا من طريق الجفاز الموحش المليء بالهدبم . بضع خطوات صاروا أمام ضريح سيدى « على ابو دبوس » ، توقفوا ، رفعوا اكفهم نحو السماء، قراوا الفاتحة . ثم حملوا النعش ومضوا ، ذهبوا الى سيدى « هارون » ، وقد لاحظنا ان الموكب بدأ يسرع بل بدانا نجرى جريا . وقال واحد من حملة النعش : « انت مجرينا كده ليه ؟! » ، فرد آخر وهو يلهث : « مخه ناشف الله يرحمه ! » ، فضحك البعض ، وشخط فبهم آخرون . توقفوا عند ضريح سيدى « هارون » ثم قراوا الفاتحة . من سيدى « هارون » الى المقابر مسافة قصيرة ، لدرجة أن الجمع المصاحب للنعش التحم بالجمع المنتظر فى الجرن وكان النعش مع ذلك يجرى طائرا فى الهواء والاذرع متشبثة به ، وصار حملة النعش يكتشفون ان آخرين قد حملوه نيابة عنهم او تلقفوه من بعيد فينحنون ويخرجون من تحت الاجساد !!..

لم اعرف كيف صرت مرة اخرى بجوار ضريح سيدى « مطرف

ابن عبد الله » . فانتبهت الى ان الزحام الذى دفعنى دفعا وأنا شيء ضائع بين الاقدام ، يريد أن يواصل دفعى او الصاقى فى حائط الضريح ، ففعلت مثل بقية العيال وتسلقت مقبرة عالية وقفت عليها غير آبه باعتراضات البعض وصياح البعض الآخر من ان المقابر قد تهدمت فى هذا اليوم الغريب ..

نظرت الى بعيد فرأيت الجمع فى السفح قد التأم فى صفوف منتظمة لا نهاية لطولها أو عرضها ، والنعش امامهم كشاهد القبلة ، وهم جميعا مندمجون فى الصلاة ، وكلمة الله اكبر ترتفع متكررة منغومة مليئة بالشجن والورع المرعبين . ونظرت تحت قدمى فرأيت على مقربة منى حفرة عميقة امام فسقية فقيرة الحال مبنية بالدبش الاحمر تتصاعد من جوفها رائحة زكية ، فعرفت انها المقبرة التى سيدفن فيها « عز الرجال خلاف » .

ان هى الا دقائق معدودة حتى كان طابور من الرجال قد راح يتسلق ربوة المقابر فبدوا كحيوان خرافى والنعش فى المقدمة كرأس الاخطبوط ! ..

لم أدر كيف وصل هذا الرأس الى هذه الحفرة . لكننى لا استطيع وصف لحظة دفنه . كانت كلحظة انفجار حريق هائل شب فى كل شيء فاذا كل شيء يشتعل باكيا صارخا جآرا يطلب الصفح والغفران من الله يطلب مكانة « عز الرجال » .

التوقع

عدنا الى البلدة لنجد فى انتظارنا سرادق العزاء ضخما لا ندرى متى اقيم ، فندمنا شديد الندم لاننا لم نشهد اقامته . لكننا مالبثنا حتى بدأنا نعانق ضوء الكلوبات الكثيرة التى انتشرت فى السرادق وامامه ترسل الاضواء المبهرة الى آماد بعيدة . وكان مهرجان الصوانى قد بدأ فعرفنا ان الجميع قد صلوا المغرب دون أن نشعر بهم ، وصرنا نعاكس الصبايا حاملات الصوانى وهن يداعبننا ويتمخطرن امامنا فى عياقة ترد الروح حقا . ثم مالبث الفقيه حتى بدأ يترنم فى الميكرفون بآيات القرآن الكريم والسرادق جموع متكاثفة تجلس فى احترام ووقار شديدين وكان معظمهم من الاعراب عن البلدة ، أما

معظم اهل البلدة فقد جلسوا امام السرادق يثرثرون بالحديث الهامس الدافىء الذى تقشعر منه ابداننا . فمن قائل ان الشيخ « عز الرجال خلاف » كان فى الواقع يحرن على مقابر البلدة لايريد الدفن فيها ! ومن مؤيد له قائلا ان « عز الرجال » كان يريد أن يدفن فى عزبة الشرانبة بجوار اعمامه الكبار ! فأيدهما ثالث قائلا انهم كان يجب أن يفعلوا ذلك ولكنهم فهموه متاخرا !!..

وكنت فى شدة الخوف والارتعاد انظر الى العيال فأجدهم يتطلعون فى هم الآخرين بخوف مما نسمع ، غير اننا فوجئنا بمن يقول فى لهجة حاسمة باترة :

ــ « على فكره ! الشيخ عز الرجال لن يقبل البقاء فى هذه المقبرة ! لقد رضى بالدفن فيها مؤقتا تحت رجاء امه ! اخذنا على قد عقولنا لكنه سوف ينتقل فى السر الى اعمامه فى عزبة الشرانبة !! » ..

اندفعت اصوات تقول متحشرجة بالرهبة : كيف ؟! كيف ينتقل ؟! قال « العرجاوى » الصياد الذى كان يتحدث :

ــ « سينتقل بمعرفته ! هذا سره ولن يغلب بالطبع !

هؤلاء الرجال لا يصح ان نسالهم كيف ! لكنه لن يمكث فى هذه المقبرة اكثر من ساعات قليلة !! » ..

أيده « حسن » الحصرى قائلا :

ــ « انه سينتقل حتما ! لن يبيت فى هذه المقبرة ليلته » ..

قال « العرجاوى » :

ــ « بالضبط ! . لن يطيق البقاء فيها حتى الصباح ! » ..

ليلتها اضطررنا ان نركن رءوسنا بجوار السرادق ساعات طويلة ، حتى اذا ماراى الولد منا شخصا من حارته خارجا من المعزى جرى فى اعقابه يحتمى فيه من الخوف . مالبث حتى نكتشف ان النساء كلهن جالسات امام دورهن بحجة انهن ينتظرن اولادهن او ازواجهن او حمواتهن الغائبات فى المعزى ، لا حديث لهن سوى طيبة قلب « عز الرجال » ، وكيف انه جاء بعد غيبة عن زوجه المريضة لكى يبشرها بالشفاء فاذا به قادم لانتظار عزرائيل فى فراشه ! وكيف انه قد نطق بعد عزوفه عن الحديث سنين طويلة قائلا لست الحسن انه حمل عنها ذنوبها وذنوب كل اهله ومعارفه وان الله لهذا سوف

يشفيها ! وكيف ان « ست الحسن » قد دبت فيها الحياة فعلا من أول ما لمسها متمددا بجوارها ليكون ذلك ايذانا بأن تنهض هى من رقدتها الطويلة ليرقد هو رقدة الابد !! ..

دارنا هى الاخرى كانت ساهرة اذ حظيت حظيرتنا بأكبر نصيب من ركائب المعزين الغرباء الذين تتزايد وفودهم وكلما أوغل الليل فى سراديب الظلام كنسها من السواد ، وكانت آخر بقاياه قد تكومت فى عباءات حول اعناق الرجال ، الذين انتشروا فى جميع انحاء الشوارع والحارات والطرقات خارجين من صلاة الفجر يلتقون الرجال والانفار والبهائم السارحين الى الحقول ، ولاح كأن البلدة كلها فى مهرجان عظيم من الدواب يركبها ناس مختلفو الاشكال والالوأن لا تعرف ان كانوا خارجين من البلدة ام داخلين اليها . وكان الضوء الفضى الربانى قد كشف الوانهم الحقيقية ومع ذلك بدت كل الكائنات كأنها تسبح فى ملاء من شذرات قطن منـدوف ، وكانت

« ست الحسن » واقفة على باب دارها تودع رهط النساء المعزيات تحكى لهن ولاطفالهن بقايا حدوتة شاهدتها فجراً حينما تركتهن مصرة على ان تصليه فوق السطح ! اذ تناهت الى سمعها دندشة موسيقية يتخللها دوى زغاريد ! فنظرت فى السماء فرأت موكبا من عرائس الحور فى سفينة من الضوء الساطع تسبح فى السماء وعرائس الحور يرقصن على انغام الدفوف والدربكة والمزامير والصاجات والنايات رقصا رائقا مثلما الموسيقى رائقة والكون كله رائق ! وراحت سفينة الضوء القادمة من جهة المقابر تطوف بسماء البلدة مثنى وثلاث ورباع ! فعرفت « ست الحسن » أن نبؤتها قد تحققت وان هذا الموكب يزف جثمان « عز الرجال » الى المكان الذى تمنى أن يدفن فيه بجوار اعمامه الكبار !. وكان بدن الارض يقشعر تحت اقدامنا حين هتفت « ست الحسن » فجاة فيما هى تشير باصبعها نحو السماء : « هاهى ! هاهى ! آخذة طريقها الى عزبة الشرانبة ! » . طارت عيوننا تعانق سقف السماء منتفضة لاهثة عاشقة : كان قرص الشمس القرمزى يطل كوردة فاتنة من خلال اطراف الاوراق الخضراء وغير الشائكة ، وكانت سحابة من القطن المندوف مذهبة الرءوس والاطرف تعبر السماء متهادية نحو الافق البعيد .

تمت ـ آخر فبراير سنة ١٩٨٦

الرواية الثانية :

الخــــــراز

الخراز

ياما تحرقنا لمجيء الخراز ، وترقبنا نداءه بصيحته المدوية المغنية بنعم شجى ركلام مضغوم لا نفهم منه سوى كلمة : « اصلح وا .. اصـ .. ا . لـ .. ح » . لكننا ان سمعناها عرفنا فى الحال أنه ذلك الرجل العجوز الطويل النحيل ذو اللحية الطويلة فى لون الحنـــاء والكامل الاسنان رغم انحناء كاهله تحت ستين من السنين قضـاها جائلا فى طرقات جميع أنحاء بلاد البر متربة ومرصوفة حاملا ذلك الصندوق الخشبى الثقيل المعلق فى كتفه بسير من الجلد السميك ، يسبقه نداؤه ، حيث يعدل هامته رافعا كفه جوار اذنه وفمه ، مطلقا فى الفضاء صوته الجميل رغم خشونته وسذاجته يحفــل بجلجلة سراجيح العيد وصهللة السلاميات والنايات والدفوف فى الموالد ، لكن يالحلاوة كل ذلك بل ويا للحزن الذى فيها ، حزن حلو حلاوة ، من فوق الالم ومن فوق الزمن وغدره بل ومن فوق هضبة الـكرة الارضية يطلع صوته علينا فجأة كأنه اول صوت صاح على الارض وسط الغابات وسفوح الجبال ، يجذب كل الناس فى بلدتنا رجـالا ونساء كبارا وصغارا يحبون الفرجة عليه وهو سارح فى البـلدة يغنى نداءه الحزين الضاحك الجاذب الذى لا تبين منه سوى كلمة : أصلـ .. أ .. أ .. ح » . اذ تغيب هذه الاحرف الاخيرة فى افق الحارة يقول « فرحات الخياط » معلقا فى اعجاب :

ــ « صوته هذا ياجماعة ليس صوته ! صدقونى يارجال ! هـذا صوت من آخر بلاد الدنيا جاء به الرجل معه ! لعله سارقه ! لو كان هذا الرجل عنده شىء من المفهومية لاشتغل مغنيـــا كبـيرا فى الاسطوانات ! » .

ويعلق « ابو يوسف » الصياد الجالس فوق مصطبته المقـــابلة لمصطبة دكان الخياط :

ــ « لو قرا القرآن لغطى على الشيخ محمد رفعت ! » .

الود ودهن ــ نساء بلدتنا ــ ان يكافئنهعلى جميلين : جميـــل صوته وجميل قدرمه اخيرا بعد أن طالب غيبته شهورا طويلة قضاها جائلا فى قرى أخرى وعزب بعيدة فيها قصور سادة لديهم مـرمات كبيرة تملأ العين يشتغل فيها جمعة بحالها ، يلحم خلالها اشياء كثيرة لا تخطر على بال ، يستحق من أجلهـــا الاكل والشرب والنـــوم على احسن وضع ، وعند انصرافه يتقاضى عرقه . هكذا هو لا يكف عن

الحكى طالما هو قاعد فى شغل : فالامر فى النهاية أن هنــاك من يفهم قيمته انضل منا بكثير ويعطيه حقه ومستحقه ، المسألة ليست مسألة فلوس خل بالك ، انما هى مسألة تقدير ومفهومية من البنى ادم للبنى آدم ، اصحاب المفهومية يظهر عليهم فى الحال تقـديرهم لصنعته ! وصنعتى هذه عفية جبارة ليست تلين لكل من امسـك بالمخراز من صبيان الصنعة اللفافين ! هذا هو السبب ـ خل بالكم ـ فى ندرة اهل هذه الصنعة ! .. هل يخرج من يد احدكم ان يعيـد الامل فى شيء صار فى حكم المنتهى ؟ شيء ثمين مثلا وغال عليك وله عزة ، اذ هو يضعه منك ومن أيامك انك أخ شـقيق للطبـق الذى تأكل فيه ، وللكوب الذى تشرب منه ، وللزهرية التى تضع فيهـا ورودك ، او لرقعة من رخام عليها معول كبير ، لمرآة غالية .. انتم طبعا تعرفون ان كسر شيء من هذه الاشياء لا يمر على النفس سهلا . لا ، هناك من ينشرخ قلبه اذا انشرخ له شيء من هذه الاشياء بله ينكسر ، منبع الصدمة فى القلب احساسك بانك فقدت هذا الشيء العزيز عليك وما أكثر ما للعزة من أسباب ، صنعتى اذن ياأولادى هى مداواة جروح القلوب ، لاتستهزىء بى انت وهو ايها الشـبان الصغار والا فدعنى اجرب الامر معك : هات ساعة جيبك هذه لاكسر لك زجاجتها ، او دعها تنكسر وشف كيف يكون الزعل زعلك وانقباض نفسك ، ساعتها ستكون رؤيتى بالنسبة لك حلما ، واذ يوفقنى الله فى لحم الكسر ولئم الجرح ففى الحال يعتريك ألفرح .

على نواصى الحوارى وفى اعماقها تترقب النســوان صوته . واضعات فى اعتبارهن ان نسوان الدور التى على النواصى ســوف يستقبلنه ويستوقفنه طويلا ، خاصة دور العائلات الكبيرة التى لديها أطقم كثيرة من الاطباق الصينى والفضيات ، وبالاخص من تـكثر ضيوفهم ومعازيمهم بحكم اتساع علاقاتهم او قوة أرومتهم ، كذلك من تكثر فى دورهم الشياطين الصغار ـ اقصد الاطفال الاشقياء . هؤلاء واولئك ـ ومعظم العائلات فى الواقع ـ لابد ان يقدموا الطعام لضيوفهم فى اطباق من الصينى الاصلى ، حيث تتوافد على المـائدة بكافة الاحجام والاشكال بلونها السن فيلى الجميل المعتق والزهرى البهيج اللامع ، من دائرية مفرطحة الى دائرية مقعرة الى ما يشـبه القارب كل طبق له طبق وحتى فنجان الشاى والقهوة له طبــق يقعد فوقه وكذلك سلطانية الشوربة ، ناهيك عن اطقـــم الشربات بشفاشقها واكوابها المستطيلة والمنبعجة والمضلعة بألوانها الوردية الزاهية ...

غير هذا في بلدتنا يعد عارا لا يحتمله سوى افقر الفقراء الذين يأكلون في طاسات أو جفنات من الفخار او بالكثير اطباق من الصاج الملون والالمونيوم ان كانوا من فئة اهل الحرف الذين تحضر الفلوس بأيديهم معظم أيام السنة ..

اطقم الصيني والفضيات امر بل هم ينتظر كل عروس في بلدتنا . تحمله أمها يوم مولدها ، فتروح تدخر له بأى شكل وبأى وسيلة نفقات جهاز ابنتها وشوارها وعلى راسه طاقم الصيني والفضيات ، اذ ان ثمنه في العادة مرتفع لان العروس لا يصح مطلقا ان تدخل بدونه مهما كانت فقيرة ، ثم ان الغش فيه سهل ومنتشر ، وليس يقدر على كشف الاصلي من التقليد سوى امراة من بيت ، من عائلة مستريحة منذ زمن طويل وبنت ناس طيبين خبرت الاطباق الصيني في بيت ابيها وتعلمت كيف تعرفه بلمسة يد بل بنظرة عين ، وهو لا يباع الا في دسوق البندر في محلات مشهورة جدا في كل القرى المجاورة يقصدها أكابر القوم عند تجهيز شوار عرسانهم ، اذ تباع الاطقم كاملة غير منقوصة طبق الزبد حتى الملاحة ومن ربيبة الشوكة سكينتها الصغيرة الى سكين الذبح والتقطيع والتخريط ، ومعروف ثمنها كورقة البوستة ، ولكن من ذا الذي يستطيع اقتحام هذه المحلات بكل جراة ليقول : ارنى هذا وارنى ذاك وينتقى على كيفه الا القادرين على دفع كل شيء في الحال في جميع احتياجات العروس في وقت واحد ! ..

لكن الامر لايترك هكذا دائما ، فدائما هناك من يتطوع بالبيع لغير القادرين بل يذهب لحد عندهم ، فغير القادر لن يقدر بالطبع على زيارة المحل اصلا ، وهو في نفس الوقت ـ هكذا يرى البعض من عباد الله الاذكياء ذكاء تجاريا كادحا ـ يستطيع ان يحصل على هذه البضاعة نفسها ولكن بشكل منظم خاضع لامكانياته ، اذ ما المانع ان اجيء لك بهذه البضاعة الثمينة نفسها لحد عندك نظير عرف تدفعه لى ؟ احلف لك اليمين مشفوعا بقراءة الفاتحة معا انني اشتريته بكذا ، ولكن بعد أن تكون قد وعدتني باضافة مبلغ كذا نظير قيامي بشرائه بمالى الخاص والمجيء به اليك ، واذا كان الطاقم غالى الثمن فوق طاقتك وطاقتى فما المانع ان استقضيه لك جزءا جزءا قطعة فقطعة ؟ ان الجزء امره سهل ، في هذه المرة جئت لك بطبق الغرف الكبير ، في المرة القادمة يسهل ربنا واجيء لك بستة اطباق غرف متوسطة ، وعلى كل حال فطبق الغرف الكبير وحده يسد نفعا كبيرا ، لكن بمشيئة الله باذن واحد احد في يوم السوق

المقبل سأجيء لك بستة متوسطين وستة صغار ، على قد حمل يفرجها اولى ويكون معى ـ بالمرة ـ طاقم الملاعق والشوك ..
هكذا يقول البائع السريح لام العروس المنتظرة من زبائنه الكثيرات البائع السريح يعرف أسرار البيوت والعائلات والقرابات أكثر مما يعرف الجيران عن جيرانهم رغم انه من الغرباء السوقية ـ اى الذين يتجولون فى الاسواق فى القرى والبلدان ويتوغلون فى اعماق الدور . البائع السريح المتودك يعرف اخبار الفتيات اللائى هن على وش جواز ، والمخطوبات ، وسمعتهن جميعا . كثيرا ما يعمل ـ الى جوار مهنة بيع الصينى والخردوات الدقيقة فى شوار العروس ـ على القيام بدور الخاطبة ، وعن طريقه كم جاء خطاب من بلاد بعيدة لفتيات فى بلدتنا . هكذا كان « محمد بتاع الغوايش » البائع السريح الذى يقال ان أصله فى البتانون منوفية ، وهو رغم تجواله المتواصل فى تراب السكك بركائبه تراه دائما نظيف الجلباب والوجه واللسان واليد ، الا من لطشة نسوانية خبيثة يشفع لها وضوحها الساخر اذ يقدر الرجال انها تنتمى عند هذا الحد ولا تتجاوزه الى محاولة العبث بأقدار نسائهم الذين يعلمون انهن يتعاملن مع هذا الرجل فى غيبة منهم احيانا ، كالحاوى لا تفرغ كل اخراجه العديدة من كل مبهج بخلب اللب ، من غوايش نايلون الى افرع وحلقان وخلاخيل ومشحفلات من الذهب الفالصو المتقن ومناديل من حرير للتعصيب واخرى من حبر للتلفيع مع معدات الشغل الترابيع ام اوية من ترتر وصدف وصوف على هيئة فل ، ومن ازرار وتوكات واحزمة وشرابات وسنتيانات وروائح وعطور تفضح وجوده على بعد حارات يحرص على زيارة زبائن له فيها ، لكنه فى العادة يتمركز عند أول بيت استوقفه ، وفى العادة يستغيبه المنتظرون فيذهبون اليه . اما الراسيات من النسوان فانهن يرغمنه بصنعة لطافة على المجيء اليهن بكل فرشه كضيف على الشاى او الغداء ان لزم ، حيث يأخذن راحتهن فى الفرجة والانتقاء ، والوصول الى اسعار فى السر لها لاشك ميزاتها عن أسعار العلن ، الغدوة فى العادة سرها باتع فى استخراج الخبيء من اخراجه وماعساه ـ لمكره ـ يكون ادخره لزبائن معينين لهم عليه حق العشم ، خاصة ان الخرج الذى يحمل أطقم الصينى والاكواب والفضيات يفرغ بعد جولة واحدة فيتركه عرضة للرائى حتى يعرف من نفسه فلا يساله هذا الطلب بدون احراج وحلفان ، فى حين يكون قد أخفى بعض الاطباق الثمينة داخل أثواب

الطرح والمناديل ، الا ان الفطير المشلتت الذى سيأخذه معه لاولاده بعد غدائه كفيل بنثر كافة مافى الاخراج والعلب من محتويات .

« محمد بتاع الفوايش » اروب رغم انه لم يصل الى الخمسين من عمره بعد . انه هكذا ابن السوق دائما ، خاصة اذا كان متودكا . لا بأس عنده من اصطناع مدخر ليصطنع التفريط فيه امامك من أجل خاطر عيونك حتى تضع انت فى هذه العيون حصوة ملح تحدفهم وتجعل لهم المعاملة سائغا ، وكسب الناس المهمين — فى نظره — أغلى من كل شىء ومن اى فلوس ، لكنه مع ذلك يلهف الفلوس بشهية المعد لا تنتهى ، تظل راحة كفه مفتوحة متأهبة لفر الفلوس اليها دائما ولا يضعها فى جيبه الا بعد مناهدة شديدة يقتنع منها الا فائدة فى زيارة أخرى بعدها ..

من مدة سنين كان يزور بلدتنا كل شهر مرة ، ثم بات يزورها يوم السوق من كل اسبوع ، ثم اصبح يزورها كل بضعة ايام خارج يوم السوق . بكثرة زياراته سهل على الامهات مهمة تجهيز الصبايا بأطقم الصينى والفضيات . وقد امنت له النسوان فأمن له الرجال فبات يؤامن النسوان على فلوس كبيرة يدفعنها له على فترات الحصاد حصادا ان احب وفلوسا ان اراد .

كل شىء فى شوار العروسة يمكن التهاون فى حفظه أو حمله إلا طاقم الصينى بالذات فانه اكثر الاشياء تدللا فى الوجود ، اننا لابد ان نلف كل قطعة وحدها ببطانة لينة تخينة من الورق او القطن او القش حين نرصه فوق بعضه ، ونرفعه بحرص ونضعه بثبات على المائدة أو تحت صنبور الغسيل ، والرجفة تأخذنا مقدما اذا تفلت من يدينا عفوا ..

العروس مذ تدخل على زوجها بشوارها يكون اول ماتبرزه لعين الزوار من الشوار هو طاقم الصينى والفضيات ، رغم انه قد شبع من الفرجة عليه وهو فى دار ابيها ، حيث عرضته امها على نساء كثيرات من جيرانها واقاربها المقربات واستطلعت رايهن فيه وفى ثمنه بالضبط فلمسنه وقلبنه بين ايديهن عشرات المرات وتلقت الاطباق والفناجين وأطقم الشربات صلوات على النبى بعدد كل مليم دفع فيها . انما ، ما أمتع ان تقدم العروس لزوجها فطور البيض المقلى والجبنة القريش فى اطباق من الصينى ، والشاى باللبن فى فناجين من الصينى بدلا من الكوب الزنك . يظل العروسان ينعمان بلمس

الصينى والشعور بفخفخة العز حتى لو كان الطعام من الطبيخ القرديحى او الباذنجان المقلى . فاذا ما انجبا اولادا يتحركون على الارض يحين موعد جمع الصينى وتخزينه فى دولاب الفضيات الثابت دائما فى قائمة شوار العروس حتى لو لم يكن موجودا من الاصل ، يظل هكذا فى دولابه منظرا جميلا لا يخرج الا فى مناسبة احتفال او عزومة ضيف من خارج البلدة ، ويكتفى اهل الدار باستخدام الاطباق الصاج الملونة والاكواب الزنك والكيزان .

فى دولاب الفضيات دائما اكثر من طبق واكثر من كوب مكسور او مشروخ يحتفظ به قطعة قطعة فى انتظار مجىء الخراز .. بعض النساء الواعيات الفقيرات يتمادين فى تخزين الصينى والامعان فى عدم استعماله حتى تكبر ابنتها فيكون جزءا من شوارها بدولابه نفسه وربما بدوبان ملابسها هى ايضا ، فليس من الغضاضة أن يكون بيت اب العيال بدون دولاب ولكن من العار ان تدخل العروس على زوجها بدون دولاب للملابس يشغل مكانا كبيرا وعند انتقال الشوار من دار ابيها الى دار عريسها ينفك الى قطع كثيرة يحملها صبيان كثيرون فيطول بذلك الموكب الطريف الذى يحمل شوار كل عروس ، اذ يتكون من الجمال والبغال والحمير والصبيان والفتيات والنساء العجائز ، كل يحمل شيئا من جهاز الشوار ، اما رهط العجائز ففى مؤخرة الموكب يحملن الاسبتة المعبأ فيها اطقم الصينى والفضيات وما يسمى بعشاء العروس وهو كمية من الارز والقمح والطيور المذبوحة والسمن والبقول تكفى لان يعيش العروسان عاما كاملا بدون احتياج لاى شىء .على ان العرائس فى العادة اكثر تشاؤما من سيرة الخراز ، فهن لا يحببن ان يبدأن حياتهن الزوجية ببشرة الخراز قبل ان يفرحن بجدة الصينى على حاله ، لكنهن مايلبثن – صاغرين – ان يسألن عن مجىء الخراز .

ما ان يتسلل صوته قادما حتى يكن فى انتظاره بلهفة وفرح . تقدم له الواحدة منهن حفنة من الهشيم والشطفات ، يبدو من المستحيل على اى مخلوق مهما عظم سحره ان يعيد هذا الهشيم الى سابق عهده طبقا او فنجانا او زهرية ورد او مكحلة او مصباحا من البللور الثمين . لكن الخراز ينظر فيه مبتسما فى تحد غامض ويقول :

– « دهده ! دهده ! حتدفعى كام على كده ! دا الواحد يشترى طبق جديد احسن وارخص ! بدال وجع القلب ده ! »

تصبح فيه المراة مشوحة في ود :
ـ « منين ياحسرة ! فشر ! هو فيه منه دلوقت ! ده صيني من الاصلي بتاع زمان ياعم الحاج ماعادش فيه منه ! » .
يقول لها قبل ان يجلس :
ـ « بس ده حيتكلف ! ده عاوز له نص يوم شغل وجايزماينفعش ! » .
تنزعج المراة تخبط على صدرها :
ـ « لا والنبي ! اعمل معروف الحمه باي شكل ! احسن ده عزيز على قوى ! ده انت ماتعرفش فرحته كانت قد ايه يوم ماجاني ! »
ثم تضيف كانها تضحي من اجله :
ـ « حاديلك تعريفه بحاله ! »
هو اخبث منها بالطبع ، يقول :
ـ « حاخد واحد باربعه ! » .
ـ « حرام عليك ده الواحد باربعه في حنك سبع »
ـ « هو فيه سبع اسبع مني ؟ »
ـ « ربنا يطرح فيك البركه »
ثم تضحك . .
ـ « تدفعي تلاته تعريفه ؟ »
ـ « التعريفه واديلك تلات بيضات ورغيفين »
ـ « ماتخلي التعريفة قرش ساغ »
ـ « النبي هو اللي حيلتي »
ـ « ماشي ياستي »
ينزع السير الجلدي عن كتفه ، يضع الصندوق على الارض يتقرفص امامه بفتحة يستخرج عدداً من المخارز كالاقلام ذات أسنان حادة رفيعة وتخينة ، يستخرج علبة شيء كالغراء ، ومطرقة خفيفة ولفة اسلاك رفيعة وعلبة كبسولات صغيرة ، وشيئا يشبه قوس الرباب له مايشبه الوتر المشدود على القوس ، يجيء بيد معدنية مستطيلة بداخلها قلب متحرك ، يجيء بالمخراز الرفيع السن يلبسه في هذه اليد ، يلف الوتر حول هذه اليد ، يثبت من المخراز على رقعة الطبق المسكورة ويبدأ في تحريك القوس كمن يعزف على الرباب ويد المخراز تنبرم حول نفسها بسرعة هائلة حتى تثقب الرقعة ، يجيء بزميلة لها ، يقيسها بها يتاكد ان هذه الشطفة ـ لا غيرها ـ هي الجزء المفصول عن هذا الجزء بدليل أن شفة الشطفة

رست على المشطوفة منها وكملتها ، حينئذ يخرمها ، يدهن الشفتين بمادة لاصقة من العلبة ، يلصق الشفتين فى بعضهما برفق ، يمرر سلكا رفيعا من الثقب الى الثقب المجاور فيحزم اللحام تحزيما محكما يبدو الملك فيه كانه حلية مقصودة لذاتها . هكذا يفعل ببقيـــة المكسور حتى يستوى الطبق فى يديه بعد دقائق وقد استعاد وضعه الاول . ما ان تراه ساحبته حتى يدب الفرح فيها فيشمل كل كيانها ، انها لفرحة عظيمة تلك التى يحسها المرء حين يستعد شيئـــا كان قد عرف الاصل فيه ، حتى ولو كان مجرد تجميـــع شـــمل طبـــق مكسود »

وكنا حتى وقت قريب لا نلح فى طلب الخراز ، بفضل حرص امى وعمتى « فرح » على الصينى ، عمتى بحكم تقديرها لقيمة الصينى واهمية وجرده فى بيوت الناس الطيبين ، وامى بحكم تمرسها على التعامل مع الصينى الفاخر منذ طفولتها فى السراية التى تربت فيها وكنت اكتفى بالفرجة عليه فحسب . اما اليوم ــ ومنذ وقت طويل مضى ــ صرنا اكثر الناس الحاحا فى طلب الخراز ، وصـــارت امى توصينى بانني اذا قابلته فى اى مكان فى البلدة لابد ان اجىء به الى دارنا . غير اننى لم اكن اراه مطلقا وكنت الاحظ ان الناس يسالون عنه بكثرة . ولم نكن نعرف لماذا اختفى ، غير اننى كنت اعـــرف ان مجيئه بالنسبة لنا قد صار امرا ضروريا . فمجيئه سيحل كثيرا من المشكلات الناجمة فى دارنا منذ اشهر طويلة مضت ، بين ابى وعمتى « فرح » من ناحية ، وبين عمتى « فرح » وامى « سعادات » من ناحية ثانية ، وبين ابى وامى من ناحية جوانية ، وبين ابى ــ مسكين ــ وبين حماته جدتى « زنوبه عمرايه » من ناحية برانية وما ادراك ما « زنوبة عمراية » ..

كل شىء فى نظر ابى يهون الا ان يقع فى سوء تفاهم مع « زنوبه عمرايه » ، تلك التى لايرى منها ــ مع ذلك ــ الا كل توقير وكـــل معزة كما يحلو لها ان تقول له دائما : اذ هو زوج ابنتها الوحيـــدة الحبلة ، التى لم تعطها الدنيا سواها بعد تعب ودوخان . صحيح ان ابى معلم فى مدرسة البلدة الالزامية ويلبس البدلة والطـــربوش كالبكوات سواء بسواء ومثلهم عنده شمسية تقيه حر الطـــريق من المدرسة للدار ، ولكن « زنوبه عمرايه » ــ مع احترامها لطرطور ابى ــ اى طربوشه ــ لاتزال تعتقد ان احدا فى الدنيا لايليق بابنتها وانمـــا هى ــ « زنوبه عمرايه » ــ زوجتها لابى بفعل القسمة والنصـــيب

فحسب . وابى يعرف هذا تمام المعرفة ، وكلما سمعها قـولـه فى بساطة يبتسم ابتسامة بشوشة تغزو كل وجهه المفلطح الشاهـق البياض ، يخفض رأسه مشيرا بأصبعه الى صدره قائلا :

ـ « فعلا ياحماتى ! حتى انا نفسى ! »

فيتفتت فى سمع الكون هدير ضحك سخن غنى كصوت دقات جرس الكنيسة يتكسر متدافعا ذلك هو ضحكها بصوتها ذى النبرة النوبية المجلجلة المصلصلة ، فى حين ينكمش وجهها الصغير الاسمر ككرة شراب مليئة بالرقع شبعت من الوقوع فى الخرارة والتعاقز على اكوام الجلة والسباخ . لكنك اذا اقتربت منه تجده يا للدهشـة نظيفا يلمع كانما بختم ربه لم تظلله غبارات بعد . يضيع وجهها ذاك فى جسد ضامر لا يبدو منه سوى الطرحة الحبر السوداء فـكأن

« زنوبه عمرايه » كلها خيال فى خيال ، هى ايضا تظن ان لها وجهـا ينبغى أن تداريه عند الضحك من فرط الحياء فاذا هى قد بسطت عليه كفهـا المضمومة الاصابع قائلة بنفس الصوت الحـاد المجلجل فى حياء :

ـ « يوه ! الله يجازيك ! ياراجل انا ما آقصـدش ! هو انت لو ماكنتش مليت دماغى ودخلت قلبى كنت سلمتها لك ! دانا بس قصدى اقول لك يعنى عن معزتها عندى ! ».

ينفشخ حنك أبى على آخره ، يهز رأسه فى توقير شديد :

ـ « مانا عارف ياحماتى ! عارف وحق كتاب الله ! لكننى صادق فى قولى أيضا وحق كتاب الله ! قصدى أن أبنتك سعادات تستـاهل كل خير ! وهى فى عينى وقلبى على الدوام ! وأنت أيضـا على راسى ! » .

يتأكد لى ، انأبى غير صادق فيما قال ، اذ أنه ، واقربها ليـلة امس ، ظل يشتم امى ويسبخها ويوبخها نصف ليلة كاملة ، وهى لا ترد عليه مطلقا ولا تأبه بشتائمه اذ هى فى الاصل ملبوخة فى المعاركمع عمتى « فرح » وفى الزعيق وانتقاء ألفاظ المعيرة وعبارات المكايدة ، ردا على مدافع عمتى « فرح » التى حباها الله بخزين لاينفد من ألفاظ حارقة تطس الوجه بالنار ولو على بعد قاعتين هما قاعتها وقاعة خزين المعاش وحوش الفرن ليقتحم على امى باب غرفتهـا فى آخر الجزء الانيق من الدار بجوار المندرتين المتقابلتين يفصـل بينهما بهو كبير فيه كنب بلدى منجد وكراسى وترابيزة وسط برخامة

بيضاوية الشكل وارجل مقوسة مشغولة بالمخرطة وفيه أيضا دولاب الفضيات فى مواجهة الداخل من الباب مباشرة .

العراك والزعيق والردح يعلو حتى يغرق كرامة أبى ويدهورها ، يشخط فى امى اولا فى رصانة ووقار شديدين :

ــ « اخرسى يامره ! » ..

فيبدو انها لم تسمع ، وتواصل الرد على عمتى « فــرح » ، فيصبح أبى هذه المرة بغلظة وخشونة :

ــ « اخرسى يامره وخشى جوه ! »

فتفلت وجهها عن باب عمتى « فرح » وترشق ابى بنظرة سريعة متسائلة تكاد تقول : بتكلمنى ؟.. حينئذ تكون « فرح » قد ارسلت عبر الحوش فالبهو كلمة لم يسمعها احد ولم يتبينها احد سوى امى ، التى تستدير فى الحال فى فتحة باب قاعتنا صائحــة برد مناسب ربما اصاب ابى رذاذ منه . ينفلت عياره تماما ، يأخذ فى الجعير والانتفاض كالثور الذبيح :

ــ « اخرسى يامره قلت لك ! اتلمى وخشى جوه ! يامره يابنت ديك الكلب ! اصلك ربايه مرة ! اتفوه عليكى وعلى ربايتك ! »

ثم يبدو عليه الحرج فجأة ، يكتشف ــ لابد ــ انه قد صــار هو وعمتى « فرح » يردحان لامى « سعادات » الوحدانية الغلبانة فى هذه الدار . يتجه داخل القاعة مشمئزا مستنفرا ، ينظر هنا وهناك تحت السرير ذى العمدان الصفراء وفوق البوريه الكبير ذى المرآة حتى يعثر على الخيرزانة التى يؤدب بها العيال فى المدرسة ، ان لم يجدها فالبوصة أم عوجاية انفع .

تكون امى المسكينة قد اندمجت فى العراك والردح بانفعال خارق مدمر كانفعال العبيد السود صارت تشوح وتتعزرن ، وتجــرأت فخطت خارج عتبة القاعة موهمة عمتى « فرح » أنها لن تتورع عـن الهجوم عليها فى الخطوة القادمة . هنا تفاجئها البوصة الثقيــلة اللاهبة منهالة على ردفيها البارزين الجميلين كقلتين من الفخــار الاحمر ، وعلى ظهرها وكتفيها . تراع امى ، تطلق صواتها فى الدار ، وكلما صوتت تزداد غضب ابى من شدة شعوره بالحرج فيقول : خلها فضيحة بالمرة ، ويواصل التلطيش فى جسدها كيفما اتفــق وهى تجرى مذعورة منه هنا وهناك فى أركان البهو والحوش وهــو يلاحقها حتى يوفقها الله فى تلقف طرف العصا بيديها ، حينئــذ تمرت بيديها عليها وهو يجرجرها على الارض بغيظ وحنق محاولا

نزع العصا منها فلا يفلح بل يتعثر وتنفلت العصا من يديه فيرتد متشقلبا على ظهره ، فيصرخ وينهض متأوها ممسكا براسه ووسطه متأوها يتجه نحوها مهرولا لكنها تكون قد اسرعت بدخول قاعة المعاش واغلقت الباب عليها من الداخل . حينئذ يرتد بكل عنف متجها نحو قاعة عمتى « فرح » بذراعيها فى شىء من التحدى والاسترحام والاستغاثة :

ـ « حتضربنى عشانها ؟! حتيجى مع مراتك على ؟! »

لكنه يكون قد انقض فى كرشها وصار يضربها باليد واللكمية ويرفسها . هى ضربة واحدة جادة وموجعة يضربها بها لها فى مكان أمين من الخطر اما بقية الضربات فمجرد حركات قرعاء تتلقاها عمتى « فرح » بالصوات الحاد موهمة امى ان ابى يمزقها تمزيقا !..

أمى تفقس هذه الفولة دائما وتحاسبه عليها نهاية الليل . وهو يعرف ان ذلك سيحدث دائما بكل حذافيره . لكنه بعد ان ينهى تمثيلية ضربه لعمتى « فرح » يمضى منتفضا فيفتح الباب ويخرج الى الخلاء .

حينئذ تجابهه الاشجار الكثيفة المزروعة فى الجنينة فى مواجهة الباب تماما ، وممتدة على مدى نصف فدان محاط بسور مبنى بالاسمنت طوله قامتى رجل وملتحق بدارنا لا يفصل بينهما الا باب الشارع ، وتحت الاشجار فجل وجرجير وقثاء وباذنجان وورد . الباب المطل على الجنينة يقف بين اربع شبابيك تطل على الجنينة يقرب طولها من طوله ولونها من لونه حتى الزخرفة المشغولة كأنه أب يتوسط أربع أولاد نجباء ، شباكان يفتحان على البهو وشباكان يفتحان على المندرتين المتقابلتين ، وكل من المندرتين تطلان على شارع عمومى بشباكين من نفس الطراز ، وليتنا مدخلان متقابلان يفتح كل منهما على شارع عمومى يخترق احشاء عزبة منظمة الشوارع متقاطعتها بنية كلها بالطوب الطينى المخلوط بالتبن فكأنها علب خصصت سفوفها لاحمال القش والحطب وكأنها كلها ملتحقة ببيتنا المبنى بالطوب الاحمر والمغفق بالاسمنت والتبن وبالطلاء الملون .

ثمة مصطبة هنا واخرى هاهنا تحت كل من الشبابيك الاربع ومفروشة على الدوام بشرائح الحصير الملون فمن فوقها تنندة من الخشب الانيق المزركش بارزة من السقف تحتجز الشمس والمطر وتتصل بفروع الشجر فى عصارى الصيف ولياليه وأمسيات الربيع والخريف بنعيمها ، اعظم متع ابى بعد الصلاة والتسبيح ان يجىء

بالمخدة والمساند ويضطجع على المصطبة يصحح الكراريس بامعان ودقة ومزاج ويكتب عليها الملحوظات بالقلم الاحمر ، بعدها يقرأ الجرنان القادم الينا لتوه بعد ثلاثة أيام من صدوره في البندر اذ يسافر له « ابو العباس » كل يومين باتفاق مع قرائه فى البلدة والمتعهد فى البندر . في المساء يصلى جماعة فى جامع « ابن هارون » فى وسط البلد ــ ووفاء للمكان الذى تربى فيه وقضى جل عمره قبل أن يجىء الى هذه الدار فى ظاهر البلدة منها للغيطان مباشرة ــ ويرجع متبخترا بجسمه التخين العريض المقشر ، والجلباب البوبلين الكريمى ذى الأقطنة الحريرية يهفهف حول ساقيه الراسختين المدكوكتين على كمبين احمرين فوق كعبى الشبشب البنى العالى الذى يبدو من البوز كحذاء لا ينقصه الا غطاء الكعب ، والذى يفصله ابى والاعيان عند اسكافى محترم فى دسوق البندر . فوق الراس من ابى طاقية من نفس قماش الثوب . فى يمناه العصا البوص أم عوجاية ، وفى يسراه مسبحة من الكهرمان ، ووجه الصديرى الشاهى اللامع الناعم بأزراره الصدفية يشهد لنظافته انه يتغير كل بضع ساعات مع انه هو هو . لاينى يقطع التسبيح ليلقى السلام على رهط من الجلوس او يرد على مار ابتدره ، فيقول له الجلوس : « تفضل ياعيسى افندى » ويحلفون بالله ان يتفضل ويحنى راسه باسما ممتنا يرد شاكرا : « كتر خيرك ! يتنه عامر » ، ويقول له المارون فى أريحية وتقدير : « يلزمش اى خدمة ياعيسى افندى ؟ الامر والله ! » . واحيانا يحسون بالحرج من ذكر اسمه فيقولون ياافندى ، فيرفع يده بالشكر نحو راسه ويعيدها مبسوطة نحو صدره عدة مرات فى حين يربت بالاخرى على ظهر من عرض الخدمة ..

العيال الذين يعلمهم فى المدرسة أن صادفوه وهم يلعبون فى الطريق يتأدبون فى الحال لدى رؤيته المفاجئة يتجمدون كأن سهم الله نزل عليهم يتصنعون انهم كانوا يشترون أشياء لابائهم من الدكان يقف الواحد منهم على جانب من الطريق رافعا يده مبسوطة الى جوار أذنه بالسلام والتحية حتى يمر المعلم مبتسما له بهزه من رأسه . ذلك ان ابى « عيسى افندى الحصرى » حنبلى فى شغله وحياته كما يصفه الناس وفى امور التربية والتعليم ليس عنده كلمة يا ام ارحمينى وقد طلع من تحت يديه الثقيلتين اجيال عدة من اهل البلدة بعضهم واصل التعليم فى دسوق البندر فمنهم كونوستبلات فى الداخلية وكتبة فى المحاكم والوسايا ومنهم ازهرية لهم شان فى البلدة ،

كلهم يضربون المثل بخيزرانته القصيرة اللاهبة ، وفصوص الجمر بين اصبعيه حين يفرك بهما اذن التلميذ الغبى فركة لاينسى بعدها ولا يتلجلج فى قول بل ينطق فى الحال ولو بالالهام ورزقه على الله وحينئذ على المعلم ان يتكفل بالتصحيح . كلهم يحلفون بحياته فى الشرح وفى التفهيم لا يترك البجم حتى يضع فى راسه مخا يعى ويحفظ ويمشى على العجين لايلخبطه . كلهم يعرف عن ثقة وعن يقين تامين ان «عيسى افندى الحصرى » - ابى - لا تخرج من حنكه العيبة أبدا ، اذ هم عاشروه خمسين عاما أو نحو فما عاب فى أحد قط ، وما تلفظ بقول ناب ، وما اغتاب احدا فى غيبته ..

وقد كنت اظن ان هذا مجرد مدح فى ابى قد لا يستحقه بحكم غرام اهل بلدتنا بمدح الافندية واهل السلطة . الى ان دخلت المدرسة التى هو ناظرها . وكان قد مضى على حين من الدهر انظر فيه الى ابى هذا نظرتى الى رجل غريب تماما ، اذ يتعين على أن أفعل مثلما يفعل الناس فى توقيره وتبجيله فأقول : « عيسى أفندى ».

فلما التحقت بالمدرسة رأيت « عيسى أفندى » - حضرة الناظر - يقف فى وسط الطابور كصدغ من جدار تخين ، طربوشه القصير منكفىء الى الامام انكفاءة يسيرة والزر من خلفه مصفوفة خيوطه السوداء كشريط اسود ملتصق به التصاقا . سترة البدلة طويلة تغطى مؤخرته الضخمة الردفين وزرارها الاوسط مشبوك فى عرونه حول ربطة عنق عتيقة قرمزية اللون مشجرة ومزينة عند العقدة بزيت العرق المتجلد الكالح ، لكن لاسة حريرية ملفوفة حول رقبته نداريها من تحت السترة ذات اللسانين العريضين المبطوشين على جانبى الصدر يظهر من تحت أيسرهما منديل حريرى ملون على هيئة أهرامات ثلاثة بارزة من فتحة جيب الصدر . اما البنطلون فقصير وشالح ، من تحته حذاء ابيض على بنى برباط عقدة وشنيطة ..

من حوله نشط المدرسون نشاطا هائلا ، «جابر افندى» ينظم الطابور ، « قمر افندى » يتفحص للوجوه بحثا عن العماص فى العيون والوسخ فى الثياب والاظافر الطويلة فى الايدى الخشنة ، الخيزرانة مخفاة خلف ظهره فيما هو يمضى متنقلا من واحد لواحد ، يتحفز لابراز العصا ، ولابد أن تفاجىء ولدا يزغده فى كتفه صائحة : « انت ياولد ! اطلع بره ! » ، ليخرج الولد منتفضا من الخوف الساحق يجعر مقدما ، اذ يتولى « راضى أفندى » لسوعة يديه ومؤخرته وكتفيه بالخيزرانة غير آبه بصراخه مهما التاع وارتفع . بعد ذلك

يمر حضرة الناظر « عيسى افنده الحصرى » ليراجع بنفسه ، متوقفا عند بعض الولدان قائلا :

ـ « انت ابن مين ياولد ؟ »

فيصيح الولد باعلى صوته نجاة من الرعب كانه فى حصة المطالعة :

ـ « بسطويسى محمود عسر ياافندى »

فاذا بحضرة الناظر يزغده بالعصا فى جنبه مبرطما :

ـ « جاتك داهيه تسم بدنك »

ثم يتجاوزه دون ان نعرف لماذا شتمه لكننى اعرف ان يدارى بهذه الشتمة خوفه ان يكتشف الولد ان اباه « محمود عسر » عزيز على ابى معـزة الروح فيعتمد الولد على ذلك ويسىء السلوك والمذاكرة ...

فى مرة كان يقوم بهوايته المفضلة فى المشى على اطراف قدميه حتى ليفاجأ به الفصل داخلا يترقب عمل المعلمين يعرف من منهم فاقد السيطرة على الفصل فيقويه ويعينه ، ومن يتهامل فيوبخه بكلام جاء عن الرسول والقرآن الحكيم قبل ان تجىء به لوائح وزارة التربية والتعليم وواجبات المعلم ..

مر على فصل غاب معلمه فى اجازة عارضة وكان هذا الفصل فصلى . فانزلق الى اذنه ـ لسوء بختى ـ لفظة قبيحة جدا لم اكن ادرى اننى قلتها ولهذا نسيت تماما اننى قلتها . مادريت الا وحضرة الناظر واقف امام التخت كانما لفظته السبورة فى غمضة عين ، وكانت الحرقة بائنة فى عينيه يطلع منها صهد يعرقنا جميعا ، نفس النظرة التى تحل بعينيه حين يقرر ضرب أمى أو عمتى « فرح » بدون فرصة للتراجع فى القرار . فى هدوء شديد نقر على قمطر المعلم الغائب وقال من بين انيابه :

ـ « مين اللى نطق بالكلمة الفلانية ؟ »

صرنا جميعا وصرت ننظر حوالينا متسائلين كاننـا فوجئنا بهذه الكلمة النابية لاول مرة فى حياتنا . صار العرق انهرا تتصبب فى اقدامنا وشبح الفلكة يلوح على مبعدة برهة وجيزة . صرخ فينـا :

ـ « مين ؟! »

انعدلنا فى الحال منكمشين لا نرد بل لا نقوى على الرد لاحساسنا بمدى خطورة ان ترد هذه الكلمة على لسان شخص بله أن تجىء على

لسان طفل في المدرسة . يبدو ان صوتنا الجماعى قد همس خافتا :

ــ « مانعرفش ياأفندى ! ماسمعناش ! »

صار يشوح بذراعيه فى تأكيد مذكرا ايانا :

ــ « الكلمة اللى اتقالت من دقيقة فاتت !
انا سامعها بودنى ! مين الولد قليل التربية اللى نطق بيها ؟! »

فلم يرد احد . فاشار نحوى فى الصف الذى أجلس فيه وراح يزوم فى توعد قائلا :

ــ « على كل حال انا متأكد أنه جاى من هنا » .

ثم تركنا واتجه للباب صارخا :

ــ « يامهدى ! هات الفلكه وتعالى ! »

وارتد عائدا نحونا يقول :

ــ « كلكم حتتمدوا واحد واحد ! كل واحد تلاتين عصايه ! لكن لو كنتم عايزين تعفو نفسكم من الضرب قولوا لى مين اللى نطق الكلمة دى فى الفصل الدراسى ! عشان أضربه لوحده ! »

فبكى الاولاد مقدما ، لان معظمهم لم يكن قد سمعنى فى الواقع ، وتهدلت أصواتهم الباكية المرتعبة فوق صدورهم حتى انا بكيت مجاملة لهم فقط اذ ان شيئا مافى مخيلتى كان يطمئننى بان الذى سيضربنى هو فى النهاية ابى قبل أن يكون حضرة الناظر . وهنا دخل « المهدى » ممسكا بالفلكة ، فارتفع الصراخ دفعة واحدة ، فنحاه حضرة الناظر جانبا ونظر فينا كأنه يوجه لنا الانذار الاخير :

ــ « على فكره ! الولد الشاطر صحيح ! اللى عنده ضمير ويخاف من عذاب ربنا يوم القيامه ! هو اللى يقدر دلوقت يعتق زمايله من الضرب ! واذا عمل كده مايبقاش فتان! بالعكس ده يبقى شجاع لانه بيفدى زملاءه ويرضى ضميره ! ولو كان شجاع بصحيح يقول انا اخطأت وقلتها ! وحاخفف العقوبة عنه ! »

وسكت ــ وهنا وقف الملعون « بسطويسى » من جوارى رافعا اصبعه صائحا :

ــ « اقول لك مين اللى قالها يافندى ؟ »

اوما له صائحا :

ــ « تبقى ولد شاطر بصحيح ! »

فوجئت اصبع الملعون « بسطويسى » تميل بذراعه نحوى مشيرة

الى . انتفضت واقفا وقلبى يدق طبولا ، جعلت اصيح فى رعب باك » :

ـ « حرام عليك ياكداب ! والله ماقلت ! »

صرخ حضرة الناظر فى :

ـ « اخرس انت ! » .

فانكتمت انفاسي . قال ل « بسطويسى » :

ـ « اوعى تكدب ياولد ! تحلف اليمين ؟ »

صاح « بسطويسى » فى جد وبراءة :

ـ « والله العظيم ياافندى هو اللى قالهـــا ! حتى بالاماره كان بيشتمنى بيها ! » .

حضرة الناظر راى الصدق ماثلا فى عينى الولد « بسطويسى »عليهما اللعنة وفى صوته يخرسه الله . فأشار لى بطرف اصــبعه ان اجيء . اخذت اتهارش أتلكأ اتحكك بالادراج ناظرا فى عينيه ابحث فيهما عن الاب فلا اجد اية انسانية ، فسلمت امرى لله وقدمى الى مشنقة الفلكة التى قرص حبلها على خنقة قدمى وارتفع به حاملهـــا المتين فوق كتف « المهدى » ودماغى يتنطط فى الارض من فـــرط اللوعة بل من فرط المحنة اذ اننى كنت يومها بدون سروال كمعظـــم العيال مما جعلنى فرجة واى فرجة ، وفين يوجعك يا « شوكت » ياابن حضرة الناظر من خيرزانة الناظر نفسه . بعد الخيرزانة الثلاثين التى انتظرتها بلهفة فقدت الصواب فحملنى الفراش الى فمطرى ، وعند الفسحة عاقبته بالتسلل مزوغا الى الدار حيث رقدت فى فراشى يومين متتاليين لا اقوى فيها على الوقوف ، وابى يتجنب النظر الى ويغمغم قائلا لامى :

ـ « سيبيه يتربى عشان يعرف غلطته ! »

ليس غريبا اذن أن يجعل الناس من أبي قاضيا ومحـكمة لهـم يعقدونها فى المنادر والدواوير بحضور العمدة وشيخ البلد ، اذ تعرض المشكلة على الحضور بمحضر من اطرافها كلهم ، او المهمين منهم . وجود حضرة الناظر يفرض عليهم التزام الصدق والصراحة فى ذكـر الوقائع ضمانا لوقوفه فى صفهم عن حق وحقيق ، ثقة منهم فى انه لن يغش ضميره تحيزا لاحد كما هو متوقع من العمدة مثـلا ، بل سيقول للمحقوق انت محقوق حتى لو كان اباه ، سوف يحكم بأن فلان غلطان فى كذا وكيت وعلان غلط فى كذا وكيت وبنــاء عليــه يستحق فلان كذا طرف علان ويستحق علان كذا لدى ترتان ..

كان على اذن ان اعترف بيني وبين نفسي انا الآخر انه يستحق بالفعل هذه المكانة بين القوم لكن شيئا ماسرعان مايجبرني ويقف في حلقي كاللقمة المحشورة ، ذلك انه حين اتسلل للفرجة على مجلس كهذا بضم ابي ، وبالاخص حين يكون المجلس منعقدا في دارنا ـ الاحظ ان المتخاصمين قد احتدوا على بعضهم البعض في الاساس بسبب لفظ معين قاله احدهم للاخر فانقلبت عائلته على أعقابها طالبة رد العيب ولو بالردع . حينئذ ، وحينئذ بالضبط ، يحلو لي بكل لذة واستمتاع مراقبة رد ابي لمعرفة رايه في مثل هذا اللفظ بعينه ماذا سيكون ؟.. يفجؤني ارتياع ابي من هذا اللفظ ، اذ يقشعر بدنه ويلتوي وجهه في اشمئزاز غاضب صائحا كأنه أوذي في مشاعره : « أعوذ بالله ! اعوذ بالله ! » ، ثم لايكتفي بذلك ، بل يصيح في بحة من الانفعال المندهش :

ـ « ازاي ياراجل تقول له لفظ زي ده ؟! انت مجنون ؟!ماتعرفش ان اللفظ ده معناه كيت وكيت ومضمونه ودلالته وكله كله عار في عار ؟! ماتعرفش انها جريمة قذف تدخل بسببها السجن ؟! مالكش حق ابدا : انت غلطان والغلط راكبك فوقك وتحتك ! ثم انك ياخي راجل متربي وابن ناس واهلك في منتهى الادب والاخلاق الحميدة .. ازاي يصدر منك هذا العيب ؟! انت دلوقت ارتكبت جرم ، واثم ، جريمة القذف في حق فلان ، وذنب عصيان الله لانك عصيته فانهار ركن كبير من اسلامك ! لان المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ! » .

لا يعصمني من الجنون حينئذ سوى انبهاري بكلمات ابي هذه وقد فعلت فعلها كالسحر في جوانح الحضور ، فاذا هم يخففون من حدة حوارهم ثم انهم يتحفظون في الكلام ، ثم ترق عباراتهم شيئا فشيئا ثم تخفت الاحتجاجات والاعتراضات وتنمحي في ازقة التنازلات الجانبية الخفية لكن البشر سرعان مايعلو جميع الوجوه ظالمين ومظلومين ، واذا بشفاه تقبل رءوسا واذرعا تحاضن صدورا ، وادوار من الشاي تنهمر بلا حساب ولابد ان يتناوله الجميع تناول الود والكيف الرائق ، وركية نار الشاي على مقربة منهم تبدو مضحكة امام ركية نار الود في صدور الحضور تذيب صدأ الحقد تزيل شبح الفرقة من القلوب . انهم جميعا من اهالينا الطيبين مهما عنفوا أو تطاحنوا يظهرون في النهاية دائما وعلى وجوههم قناعة بانهم جميعا محكوم عليهم بالتآخي ولا مفر من التواد . نفس الكلمات التي

يقولها ابي دائما بعد ان تنتهي السهرة كتعقيب جانبي على ماحدث بعد ان حدث وانتهينا منه ..

حتى انبهاري هذا نفسه سرعان مايضمحل امام ذلك الشيء الذي يحيرني في أبي ينفعل فيجرم الالفاظ والمفردات تجريما ، فهذه اللفظة فيها سجن بأشغال شاقة وهذه سجن حاف ! وهذا القول شرير وذاك احتيال . انبهر ثانية لهذه المكتشفات الجديدة بالنسبة لى وتلذني غاية اللذة · الا ان انبهاري - مرة أخرى - سرعان مايخبو أواره أمام تلك الصورة الانسانية التي يشخصها ابى للالفاظ والمفردات والاقوال ، راسما بيننا وبينها العلاقات كأنها ونحن اناس نتبادل المنفعة ، تبعا لذلك فهذا اللفظ يجب ان يتأدب وهذه المفردة لابد ان تنفى من عتبة اللسان وهذا القول لابد ان يحتشم وهذه العبارة بالذات .... يجب أن تفهم أقدار الناس وكراماتهم وكبريائهم فلا تنطلق من اللسان اصلا اذ انها عبارة كالكرة المطاط ترتد الى قائلها في الحال تصيبه كما اصابت الآخر ، ومن هنا - يقول متجليا - كان السر في قوله عليه الصلاة والسلام : اياكم ان يسب احدكم احدا فيسب هذا اباه ويسب امه ، وقد صدق المثل الشعبي هو الاخر حين قال : الولد العديم التربية يجيء لاهله باللعنة ..

ابدا لا تستطيع هذه الافكار الجميلة البديعة التي يثيرها ابى في حيالي ان تشغلني عن ذلك الامر الذي لاينفك يشغلني . فالعجيب ليس ان يقول ابي كل هذه الدرر او يفعل كل هذه الافاعيل الخيرة الجبارة ويحظى بكل هذه المكانة ، لا لم يكن ذلك اقصد لم يعد عجيبا في نظري فقد سبق ان أقتنعت انه يستحق كل ذلك عن جدارة . انما العجيب العجيب حقا هو ان هذه الالفاظ التي يجرمها ابى ويرفضها ويطالب بنفيها من عتبات اللسان لا تعتبر شيئا بالقياس الى الالفاظ البذيئة - عدم المؤاخذة ياحضرة الناظر - التي يصبها ابى على أمي وعمتي « فرح » في لحظة الغضب ولحظات غضبه في العادة جارفة جارحة ..

اظن ان هذا ليس اعجب مافي ابى . فالاكثر عجبا منه ان ابي يعود من صلاة العشاء وقد نسي كل شيء حدث قبل خروجه كأنه لم يحدث اصلا ، او كأنه حدث لشخص آخر غيره ، كل هذه المهانات التي الحقها بأمي وبعمتي « فرح » وبنفسه ، وكل هذا العناء الذي خيل الى انه سيسقط على اثره ميتا ، يتلاشى بكل هذه البساطة كأن صلاة العشاء قد مسحته كما يمسح هو السبورة بالسفنجة .

في العادة تلوي امي بوزها طويلا ، وبما طول الليل لكنها ما أن تسمعه يفتح باب الجنينة ويدخل مقبلا نحو المصطبتين حتى تهبط عن السرير فتغسل وجهها في حوض الحمام المبني بالاسمنت في ركن من القاعة ملاصق لجدار خارجي ، تنظر في مرآة البوريه فترى أمامها غزالا أسمر اللون لا مثيل لجماله او رشاقته في البلدة كلها ، مكسم الجسم في دقة فالخصر خصر والصدر صدر والردف ردف وكل شيء فيها يقول ها أنذا على عينك يا تاجر ، هذه هي أوصاف « زنوبه عمرايه » ترددها عن امي دائما حتى صرت وصرنا كلنا نقلدها في ذكر تلك الاوصاف دون حرج · تعصب رأسها بتربيعة مشغولة بالفل والترتر على طريقة أولاد الناس الطيبين ، أذ هي ـ ولا فخر ـ تربت في سراية من سرايات بلدتنا الكبيرة ، ولانها ليست متزوجة من فلاح بل من معلم يلبس البدلة الافرنجية فيحق لها هي الاخرى ان ترتدى فساتين على الطريقة الافرنجية وان تغض شعرها تحت ايشارب حريرى أو تتركه ـ عند روقان البال ـ مطروحا منسابا كالغدران على ظهرها وصدرها في غزارة متفحمة . ينمحي أثر الدمع عن صفحة وجهها الخمرى النحاسى المتناسق الملامح حلو التقاطيع . تطمئن على زينة وجهها ونظافة ثوبها وعلى رائحة الصابون الفائحة من صدرها وشعرها على الدوام · تكون هي الاخرى قد وصلت العشاء وهدأت نفسها واستكن الالم . تمضي في البهو على مهل تتبختر كالاوزة مطرقعة بشبشبها في كعبها لتغيظ عمتي « فرح » ولتعطى بطرقعات الشبشب على الارض اشارة لابى بأنها نهضت وهاهي ذي قادمة حتى لا يضطر الى النداء بانفعال قد يجر عراكا جديدا يؤدى الى ختام أسوأ .

هي تعرف ان ابى قد تربع على المصطبة مستريحا على المستند ينتظر طعام العشاء . تتجه نحو الكانون المنصوبة فوقه حلة الطبيخ الذى هو في الاغلب ظفر او حمام مما تربيه عمتي « فرح » بغير حساب في حوش الدار الخلفي . تتذكر شيئا ، تترك الكانون وتتجه الى الشباك حيث يوضع « الكلوب » فوق ارضه . تتقرفص على الارض ، بحرص شديد تعمر الكلوب بالجاز ، تعطيه نفسا بالمكبس ، تشعله ، تفتح درفتي الشباك تضعه ليملأ الدنيا وشيشا مبهجا يبطن صوت نقيق الضفادع وصفير الصراصير ويرمى ضوءه الساطع في احشاء الجنينة يفرش فوق نجيلها ونباتها شبكات وملاءات من خيوط برتقالية . . تعود امي فتشعل النار في الكانون تحت الحلة

تسخينا للطعام . تسرع فتخرج الطبلية تضعها على المصطبة ، تلخفها بالملعقة والملاحة وطبق اللفت والسلاطة الخضراء منتجات جنينتنا . ترتكن على الشباك ، تعقد ذراعيها على صدرها تبقى شاردة في انتظار سخونة الطعام ..

اكاد اعرف أنها في شرودها هذا تفكر في امرها ، ولابد انها تسترجع في دماغها قصة ابى معها وحبه لها وتضحيته من اجلها . الصور الكثيرة التى حكاها ابى لها عشرات المرات امامى فى أذيال الليالى المكفهرة كى يصالحها بها ويثبت صدق احساسه من ناحيتها ؛ صرت احفظها كما احفظ حياة ابى : انه الابن البكرى للأسطى «حسنين سليمه الحصرى » ، الذى كان الحصرى الوحيد في البلدة لديه عدد من الصنايعية يوسع بهم شداته التى بها ساحة الدار القديمة ، مرصوصة خلف بعضها فى صفين ، كل شدة عبارة عن اطار من عروق الخشب معد بحيث يمكن التحكم فى عرضه وطوله حسب مساحة الحصير المطلوب ، بان تفك الزوايا الحديدية القارصة عن الخشب لتتقارب العروق او تتباعد ثم تربط الزوايا من جديد ، ويمتلىء هذا الاطار بصفوف من خيوط الدوبارة مشدودة فى الخشب بالطول ومنظومة بمسافات محسوبة بين الفتلة والفتلة ، والخيوط تتخلل مضربا خشبيا ثقيلا . يتقرفص الصنايعى فوق لوح خشبى مستو فوق الخيوط ، وبجواره حزم من نبات السمار الشبيهة باعواد البردى وقد جرى شق الاعواد من قبل الى شرائح مبططة تلونت وترطبت بالماء . يتناول الصنايعى عود السمار ، فيمرره صعودا وهبوطا من بين خيوط الدوبارة المشدودة حتى ينتهى العود فيلوى طرفه على نفسه تحت الخيوط ، ثم يشد المضرب بضربة فوق العود تلصقه باخوته فيبدو كما لو ان الاعواد قد خيطت فى بعضها البعض بالابرة ..

حصائر جدى « حسنين سليمه الحصرى » كان يضرب بها المثل فى العب كله فيجيء الزبائن من كل مكان ، حيث تمتلىء ساحة الدار بأعمدة من الحصائر مبرومة حول نفسها تنتظر قدوم اهلها بالبرايز الكثيرة . من حصيلتها علم ابى فى دسوق البندر حتى نال شهادة البكالوريا والتحق بمدرسة المعلمين وتخرج معلما فى سنة حاجة وأربعين ، حيث تم تعيينه فى عدة بلاد مجاورة الى أن توسط به نائب الدائرة الوفدية فنقله الى مدرسة البلدة لينفعه فى الدعاية الانتخابية ...

جدى « حسنين سليمه الحصرى » كان قد اشترى نصف الفدان هذا وادخره الزمن . وكان قد انجب فوق ابى ثلاث رجال واربع بنات . اما عمى « عبد الرشيد » فقد ورث الصنعة بعد عجز ابيه ، ولكن الثورة حين قامت رخصت الحصائر وطلع الناس فى مطلوع جديد هو الاكلمة الرخيصة المصنوعة من بقايا الخرق والهلاهيل بعد برمها وغزلها وتلوينها ، تباع بالتقسيط المريح نظير بضعة قروش كل شهر ، والناس كلهم احبوا فرش الاكلمة وفضلوها على الحصائر ، فكلهم يريد ان يوهم نفسه ان فى داره سجاجيد كملية القوم .. فما كان من عمى « عبد الرشيد » الا ان صفى الصنعة نهائيا واقتطع من الدار قاعة على الشارع فتح جدارها وحولها الى دكان بقالة وجد فى رواجه رزقا وفيرا مكنه من تسوية الورث مع اخوته والاستقلال بالدار ضاما اباه العجوز فى عصمته الى ان تحققت امنيته ووفى كل ابن من ابنائه بوعده فسفره الى الحجاز مرة ، ومات عقب آخر حجة عن سبعين عاما . واما عمى « سليمه » فانه قد لبس فى الجهادية وحين انهى مدة الخدمة تطوع عسكريا فى البوليس وهو الان عسكرى مرور فى دمياط قد استوطن وتزوج من هناك وبات يزورنا كل بضع سنوات مرة . واما عمى « رجب » — المولود فى شهر رجب — فانه قد تمعشق فى التعليم ونبه فى المدرسة غير ان جدى خاف من الانفاق عليه حتى لايهجره ويعيش مغتربا شأن كل من يكملون تعليمهم فى بلدتنا . لكن ذلك لم يمنع المقدور ، فقد ظهرت نباهة عمى « رجب » وجودة خطه عند الكتابة وكلامه عند الحديث فاشتغل كاتبا للأنفار فى وسية أفندينا بكفر الشيخ وسخا ، وبعد الثورة صار موظفا فى الاصلاح الزراعى . ولانه متودك متفتح دائما فقد صير نفسه مسئولا عن جمعية زراعية كلامه فيها انفذ من كلام المعاون الزراعى ، فكون ثروة كبيرة واستوطن بندر كفر الشيخ وبات أفنديا معتبرا يهز البلدة يوم يجيء لزيارتنا ، وتزوج من « بشينة » بنت « غزال » البقال فى بلدتنا والتى عملت مدرسة ابتدائية فى كفر الشيخ بنفوذه فى المديرية . هو الوحيد بين اعمامى الذى نفع كما يقول عمى « عبد الرشيد » ، والوحيد الذى ظهر عليه حب الابوين ودعائهما كما يقول عمى « عبد السلام » ، والوحيد الذى ضل سواء السبيل كما يقول ابى . لكنه رغم ذلك محترم من جميع الناس ، ومع ذلك هو الوحيد الذى لم « يمصلح » مع ابى عند تقسيم الميراث فتساهل معه حتى آلت ملكية نصف الفدان

الى ابى ليبنى عليه هذه الدار الفخيمة التى يتشرفون بها جميعا رغم انه يستقل بها وحده .

واما عماتى فان عمتى « وهيبة » قد تزوجت من شيخ الغفر وعاشت في سر هادىء فانجبت صبيانا وبنات . واما عمتى « فطومة » فقد تزوجت هي الاخرى من رجل يقرب لبعض اقارب لنا فى بندر طنطا يدعى « سيد طعيمه » ويعمل سائق قطار وهي الاخرى تعيش معه فى تبات ونبات . تبقى عمتى «روح » وليس فيهـا من الروح شيئا بل هي كلبظة الوجه تشبه عمى « عبد الرشيد » فى تربيـة اللحم على الجسد ، قد عنست وفاتها قطار الزواج ، ولما كـانت السائرة لبيت ابيها فقد الحقت بدار اخيها « عبد الرشيد » تأكل وتشرب وتساعد فى شغل الدار . بقيت عمتى « فرح » وليس فيهـا هي الاخرى من الفـرح شيء بل انها نكدية تمـوت فى الحـزن والغم ، وشكلها غير متناسق على الاطلاق لا يعرف ناظرها ان كانت رجلا أو امرأة حيث لا صدر لها ولا مؤخرة ولا شعره سـوى وبرة خشنة تحت تعصيبة المنديل ، ولهذا فقد عنست هى الاخرى والحقت بدار أبى ، وتتميز عن عمتى « روح » بأنها لا تزال تؤمـل فى قـدوم العريس داخلا مع ابى ذات يوم قريب .

امى هى الاخرى كانت تحمل الامل نفسه وتهتم بامره اكثر مـن عمتى نفسها ..

عمتى « فرح » ـ وياللعجب ـ هى التى سعت فى تزويج ابى من امى قبل عشر سنوات مضت ، وكان ايامها على وشك الانتهاء مـن هذه الدار الابهة التى ستنقلنا الى طبقة الاعيان مرة واحدة لمجـرد اننا نستطيع ان نعزم فيها مرشح الدائرة بكل فخر ونفتـح لمؤيده المندرتين الكبيرتين ونقدم لهم فناجين الشاى الصينى واكواب الشربات لم تكن هذه اول زيجة لابى ، فقد كان تزوج ابان تخرجه وتعيينه من ابنة خالته فعاشت معه سنوات طويلة لا تنجب فعرضها على حكماء بندر دسوق وكفر الشيخ فأكدوا له ان العيب منها ، فصعبت عليه ابنة خالته ان يطلقها أو يتزوج عليها فقال هذا نصيبى قد رضيت به والحمد لله ، وظل مخلصا لها حتى اصيبت بمرض الكوليرا فى العام الثامن والاربعين اثناء غيبته فى سفره للحجاز مع جدى ، وماتت فى ظرف يومين فحزن ابى عليها وقرر ان يبقى مخلصا لذكراها الى الابد ..

الا ان دارا كالتي ابتناها لا يمكن أن تكون بلا امرأة تنيرها وتزينها ،

هكذا الحت عليه عمتى « فرح » واختارت له ـ لاجل النصيب ـ امى « سعادات » بنت « زنوبه عمرايه » ..

بهذا تعيرها عمتى « فرح » دائما ، وتذكرها بكل صغيرة وكبيرة : لقد تردد ابى حين حدثته وقال انها بالفعل بنت جميلة رغم سمارها وكل رجال البلدة وفتيانها يتمنون الزواج منها لكنهم لايفعلون ابدا فلماذا لايفعلون ؟ تقول لك عمتى انه البخت والنصيب . يقول لها كأنه يذكرها بالسبب الحقيقى وراء امتناع الخطاب :

ـ « ازاى بس يافرح ! واحد زى اللى له مركز اجتماعى مرموق يتجوز بنت واحدة ارملة مالهاش عيلة ؟! »

تقول عمتى :

ـ « خذوهم فقراء يغنيكم الله »

حين تسمع أمى هذه الحكاية من ابى تنبهه الى انه ـ لطيبته ـ لم يكن يعرف السر فى ان عمتى « فرح » رشحت امى بالذات لزواجه منها .. فقد كان لامى اخ وحيد هو خالى المرحوم « عمر عمر » . وكان هو وامى « سعادات » وجدتى « زنوبه عمرايه » يقيمون فى سراية « مصطفى بك ناصف » الذى يملك الف فدان فى زمام بلدتنا « شبشير الحصة » ويملك قصرا واولادا كبارا يعملون فى المدينة فى وظائف كبيرة ، وصغارا يتعلمون فى لندن وأمريكا . ورغم ان الثورة الغت الالقاب فان الجميع ظل يناديه ياسعادة البيه . ورغم ان الثورة حددت الملكية بمائتى فدان فانه قد نجح فى توزيع الافدنة على اولاده فلم يأخذ منه الاصلاح الزراعى فدانا واحدا . وكان جدى لامى « بخيت عمر » يعمل طول عمره تمليا فى قصر « ناصف بك » هو وزوجه وابنه وابنته ويقيمون فى حجرة مخصوصة فى حديقة القصر ، حيث يقوم جدى « بخيت عمر » برعاية الحديقة وقضاء المشاوير للبك ، وتقوم « زنوبة عمرايه » بخدمة الست فى شغل الدار ، وتقوم امى « سعادات » برعاية شئون ابناء البيك الصغار ، اما خالى المرحوم « عمر » فيقوم بتوصيلهم للمحطة بالركوبة عند سفرهم كل يوم لمدرسة البندر التى تعلم بالانجليزى .

« مصطفى بك ناصف » رجل ابن اصل كما تحلف بحياته « زنوبه عمرايه » . جعلهم كأفراد من عائلته يكسوهم ثمين الكسوة يطعمهم شهى الطعام يبغددهم يدللهم يفرض على اهل البلدة احترامهم خالى المرحوم « عمر » كان خفيف الدم يهزر ويضحك مع كل واحد بمناسبة وبغير مناسبة . وقد هزر وضحك كثيرا مع عمتى « فرح »

فى ماكينة الطحين ايام كانت مكلفة بطحين دارنا وهو مكلف بطحين « ناصف بك » . فظنته المسكينة واقعا فى هواها ، فرسمت على الزواج منه ، وتعمل على تقريب ابى من امى حتى تقترب المسافة بينها وبين خالى المرحوم « عمر » لعله يتزوجها . وكان من بين الاشياء التى اغرت بها ابى رؤيتها لاطقم الصينى والفضيات التى تحوشها ست هانم لامى ، مع الفساتين المدخرة ، والعفش الفاخر الذى ستتجهز به من دمياط ، والنقوط الكثيرة التى ستنهال عليه يوم الفرح .. الى ان امتثل ابى لالحاحها من اجل القسمة والنصيب فذهب يخطب امى من « ناصف بيك » فوافق فى الحال ووافقت « زنوبه عمرايه » ودفع أبى مهرا قيمته عشرون جنيها ، ولم يمض أكثر من شهر واحد حتى كان كل شىء قد تم وانتقل الى دارنا الجديد عفش ثمين قوامه سرير نحاسى وبوريه كبير بمرآة بلجيكية وترابيزة وسط من الرخام وكراسى منجدة مذهبة ودولاب فضيات ملىء بأطقم الصينى الفاخر من اطباق وفناجين .. وبهذا بات ابى من اعيان البلدة رسميا يفاجىء ضيوفه الاكابر بأطقم الصينى المفتخر التى لا توجد الا فى قصور الاغنياء الكبار . وباتت أمى هى وعمتى « فرح » مثل السمن على العسل ..

لم تمض سوى شهور قليلة حتى فوجىء ابى بأنها قد حملت فى ، فازداد حبه اها عمقا ومتانة . ولم يكن ليدور بخلد عمتى « فرح » ولا امى « سعادات » ولا « زنوبه عمرايه » ان خالى « عمر » يمكن أن ينخطف منهم فى غمضة عين ، اذ دفعته الشهامة للمساعدة فى اطفاء حريق فسقط فيه ميتا وشرب الجميع حسرته . على ان ذلك لم يشف غليل عمتى « فرح » ابدا ولم يعزها فى مصابها الدفين ، فباتت تعارك ذباب وجهها ، وباتت تكره امى فى لله خاصة بعد أن ولدتنى وتيقنت عمتى ان وريثا شرعيا جاء لاخيها سيمكن لامه فى مملكة هذه الدار الفخيمة التى كانت عمتى تحتلها وحدها ذات يوم . وبات الاشتباك بينهما قائما كل بضعة ايام بدون سبب ظاهرى كثرت المنغصات فى حياتنا بسبب استفزاز عمتى لامى على الدوام . وكان ابى يصلح بينهما دائما بشق النفس ، ولولا ان دارنا متطرفة خارج حدود البلدة ، ولولا انها مغلقة باحكام لكانت فضيحتنا مضرب الامثال .

لهذا السبب صرنا فى حاجة مستمرة لمجىء الخراز بعد ان كنا نأنف من التعامل معه لوجود نسخة زائدة من كل طبق وفنجان . ذلك

ان عمتى « فرح » اصبحت كلما رفعت طبقا لتغسله او لتضعه على الطبلية وقع منها وجاء الى ستين حتة .. فتتهمها أمى انها فعلت ذلك بالعنبة للتنكيل بها .. فترفع عمتى وجهها الى السماء مشوحة بذراعيها سائحة فى ولولة باكية :

ـ « حسبى الله ونعم الوكيل ! حسبى الله ونعم الوكيل ! »

وتشتعل المناحة فى الحال ، فيرتفع صوت ابى ، ثم ترتفع عصاه ويتصادف بعدها بقليل ان تحمل امى طبقا او فنجانا ، فينفلت منها ، ويهوى الى الارض هشيما ، فتتسمر امى فى وقفتها ذاهلة مرتعدة من هذا الخراب المستعجل لتفاجأ بأن عمتى « فرح » تراقبها شامتة ممصوصة بشفتيها قائلة :

ـ « أصلك ظالمانى ! ربنا مايحبش الظلم ! »

فتصرخ امى فيها ، متهمة اياها بأنها قد نحستها ، وانها السبب فى اضطراب اعصابها . يشتعل الصياح والردح ، تحسمه عصا ابى ، التى ربما اخطأت هى الأخرى وطيرت فى الهواء طبقا يتهشم قبل وقرعه ، فيفقد ابى صوابه وينزل فى الاثنتين ضربا حتى يفقد قوته فيخرج الصلاة .

والآن آبت كل ثروتنا الثمينة من أطقم الصينى والفضيات الى كومة هشيم وشطفات تنتظر مجىء الخراز قبل ان تهجم علينا الضيوف فجأة ونضطر لتقديم الطعام لهم فى أطباق من الصاج الملون . صرنا نستدر صوت الخراز ونتشوق لسماعه مناديا بصوته الرفيع الحاد الشجى ..

وصار أبى فى حيص بيص كما يقول ، فما به ان ركنا عظيما من اركان الابهة قد انهار فى دارنا وشبح الاطباق الصاج يهددنا بمنظره الكئيب على الطبلية فى كل وجه فينقبض وجه ابى انقباضا شديدا ، يتجرع الطعام على مضض ومن حين الى حين يسأل : « هو الخراز ده بطل يمر ولا ايه ؟! » .. ومابه من تزايد النقار والزقار بين امى وعمتى « فرح » بدون اسباب يمكن الامساك بها والتحقيق فيها .. وما به من حرج بسبب اضطراره للشتائم المقذعة التى يوجهها كل يوم لامى ولعمتى . لقد بات يشعر بالندم ، ويقضى وقتا طويلا فى الجنينة يبرطم ويستغفر الله من الشيطان الرجيم الذى ينتصر عليه كل يوم فيضعه فى صف المجرمين الشتامين ، وما الشيطان الحقيقى فى نظره الا واحد من اثنين : امى او عمتى .. ولذا فان الله سينتقم له منهما عن قريب باذن الله .

كل ذلك لا يعد شيئا بالنسبة لخوفه من « زنوبه عمرايه » حين اتأكد من ان عمتي « فرح » هي التي كسرت معظم الصيني في شوار ابنتها وبارادتها عامدة متعمدة . آه لو علمت . اسمع ابى فى الجنينه وحده يردد هذه العبارة على سبيل السخرية ، لكنني المح الخوف الحقيقي في عينيه ونبرة صوته حين يردد قائلا لنفسه في توجس حقيقي : « مازمانها عرفت ! هي النسوان يتبل فى بقهـا فوله ! وربنا يستر ! وربنا يستر ! » ..

اعرف في الحال ان ابى يعرف ان الفضيحة الحقيقية ستكون يوم تقف له « زنوبه عمرايه » لتردح مطالبة اياه بتعويض ابنتها عن الصيني ، لقد دخلت ابنتها على ابى بطاقم من اطقم الباشوات ، طاقم عجبه ، يتحاكى به الناس حتى اليوم ، القطعة الواحدة منه بالشيء الفلاني ، وليس منه الان في بيوت حتى الاغنياء في بلدتنا ، فهل تكلفوا ثمنه الغالي . لكي تجيء عمتي المتفرعنة وتكسره ؟! الهي تنكسر رقبتها ..

ستتردد « زنوبه عمرايه » على كل دار فى بلدتنا وتشتكى فيه من عمتي « فرح » ومن رخاوة ابى وتحيزه لها ضد أمي . سيعرف كل الناس اننا لم يعد عندنا اطقم صيني نتباهى بها ، واننا عدنا الى اصلنا فقراء ناكل في الصاج والفخار بعد ان ثبت اننا لا نصـلح للتمدين بطبيعتنا ..

ارى كل هذه الهموم مجسدة على وجه ابى ، اقول لنفسي برعب . ماذا لو علم بأن « زنوبه عمرايه » رددت هذا الكلام بالفعل امامي في بيوت بعض جيراننا المقربين ؟! ولابد انها رددته في بيوت اخرى ، ويعلم الله ماذا ستفعل حين تيأس من تحرك ابى لشراء طاقم جديد او السفر للحم هذه الاطباق في البندر ..

مابتأكد منه ابى ان « زنوبه عمرايه » لن تخاف من طرطوره ، ولن تتورع عن الوقوف قصاده فى اى مكان ترد عليه الصاع صاعين وسوف تغلبه وتغلب عشرا من أمثاله فى لحظة واحدة ، انهـا تردح في بعض الاحيان لـ « مصطفى بك » نفسه لكنه يضحك ويسامحها لعلمه ان الجميع يعرفون فضلها عليه اذ كانت هي مربيته وهو طفل صغير وفي هذا الكفاية .

لكن كل ماكان يخافه ابى قد حدث . جهرت « زنوبه عمرايه » بشكاواها وفضائحها فصنع منها الناس نكتة يتندرون بها مع ابى في المجالس وأبي يبادلهم السخرية مستنزلا اللعنات على الخـراز

النذل الذى عانده واختفى . حتى الضيوف الاقراب الذين كانوا يزوروننا من حين الى حين بدءوا يستسيغون منظر طبق واحد او طبقين من الصينى على المائدة والباقى اطباق من الصاج الملون ..

وكما يقول ابى دائما : ليس للجروح الغائرة من مداو سوى مرور الايام ، أن الزمن هو الخراز الحقيقى بالنسبة للنفوس المرورة ، انه على الاقل ينسينا الالام بكثرة مايعترينا من مشاغل ومشاكل ومنغصات جديدة تطغى على القديمة . وقد صدق . فمن كان يصدق ان عمتى « فرح » تتزوج ذات يوم ؟ لكنها تزوجت ، خطبها كهل جاء يعمل عسكريا سواريا فى نقطة الشرطة التى افتتحت حديثا بالبلدة وسكن بجوارنا فانبهر بشخصية ابى وسلوكه فتقدم للزواج من عمتى فكان له ما اراد ، وخلت دارنا من العراك والردح خلوا تاما ، وخفت صوت أبى تماما فلم يعد يجهر الا بالصلوات والتسابيح ، وبدأ ينشغل كثيرا بأمر الانجاب حيث ان امى امسكت عن الانجاب بعدى لسبب مجهول لم يهتم به اذ انه كان يتمنى منه ولدا واحدا يحفظ ذريته فلما جئت انا حمد الله على ذلك ولم يطلب منه سوى أن يبقينى على قيد الحياة ويطرح فى البركة . على أن أمى كانت قد نسيت هذا الامر تماما .

ولقد كبرت انا فصرت فى طول ابى ، وذهبت الى دسوق البندر للتعليم المخصوص ، واصبح ابى يفخر بان أمشى جواره فى شوارع البلدة خاصة عند الذهاب الىالصلاة . وكانت الثورة قد اغرقت البلاد بأشياء حديدة وبضائع جديدة على راسها الاطباق التى تشبه الصينى تماما بدون ادنى فرق ظاهرى لكنها من الفخار الجيد الصنع فاشترينا منها طاقما ، مثلما اشترى كافة الناس منها لرخص ثمنها ولندرة الصينى الاصيل . ثم طرات علينا اطباق جديدة اخرى من الميلامين لاتنكسر مطلقا ولا تذوب ، فاشترينا منها طاقما مثلما اشترى كافة الناس فى بلدتنا ..

اختفت الاطباق الصينى من موائد كل الدور الا القليل منها . واكثر من مرة حاولت امى رمى نثارات الاطباق الصينى القديمة لاخلاء مكانها للاطقم الجديدة فى دولاب الفضيات ، لكن ابى كان يمنعها من التفريط فيها ، بل كان يحلو له ان يراها الضيوف مكومة فى ركن من الدولاب بارزة من خلال الزجاج ..

وذات يوم كناعائدين ، ابى وانا ، من صلاة الجمعة متوجهين الى دارنا ، حينما قابلنا ـ فجاة وعلى غير توقع ـ الحراز . كان يمشى هذه

المرة فى بطء شديد ، يرفع قامته بصعوبة ، يردد النـداء بشكل واهن ..

لا استطيع وصف السعادة التى حلت بابى لحظتها كأنه طفل صغير بائع حلوى غزل البنات بعد غيبة طويلة . فتمهل فى مشيته يهم ان يغير طريقه ويندفع اليه ، لـكنه صاح هاتفا بصوت صبيانى غاية فى الطرافة : الله ! الخراز أهه! ويموح رقبته يتابع سير الخراز فى اهتمام ثم مالبث ان اعتدل جوارى ماشيا فى حرج كأنه احس بأنه قد كـبر على حلاوة زمان .

تمت

رقم الايداع : ٥٦٧٤ / ٨٦
الترقيم الدولى : ٨ - ٢٦٦ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

٧٥ قرشا

هذه الرواية

فى السنوات الأخيرة بدأ « خيرى شلبى » يحتل مكانة بارزة بين كبار كتاب الرواية العربية المعاصرة ، بعد تألقه فى روائعه :

[اللعب خارج الحلبة] و [السنيورة] و [الأوباش] و [فلاح مصرى فى بلاد الفرنجه] و [صاحب السعادة اللص] و [المنحنى الخطر] و [الشطار] و [الوتد] و [العراوى] وغيرها .. وبعد أن ترجمت بعض هذه الأعمال إلى الروسية والصينية والأسبانية والانجليزية والفرنسية . وتنبع أهمية كتاباته من أنها - إلى جانب تحقيقها قدرا عاليا من الفن الروائى والقصصى بلغة شديدة الخصوصية والصفاء - يمكن وصف ادبه بأدب الشارع المصرى ، والقرية المصرية فى أصدق صورها واوسع زواياها ، والحياة على بعد آلاف الفراسخ تحت سطح الظواهر . وهاتان الروايتان نموذجان فى هذا ، فيهما يجمع بين العمق والوضوح فى جديلة واحدة .